جراح على ضفاف الحرب

رواية

مجد حبيب

الفصل الأول

" سلامة الأخرس"

حلمٌ مضرجٌ بدماءِ خيبات الواقع

حلمٌ قتلوه مراراً و مراراً و لم يمتْ

البحر يعلوه و يلفُّ ضلوعه كسمكةٍ قلبها مثقوب

قتلوك مراراً و لم تمتْ

أوسعوكَ جلداً بسياط النار ولم تمتْ

يتاجرُ بأحلامك الغيمُ الراحل...

في إحدى قرى اللاذقية الهانئة
بوارفِ ظلِّ أشجارها، المتربعة على تلّةٍ

نائيـةٍ حيـثُ تتظـافرُ و تتـأزر عليهـا أغصـانُ شـجيرات الأرز لتصـدَّ هجـومَ أشـعةِ الشـمس القاسـية عـن تلـك القريـة المتخمـة بـالفقرِ الـذي تتأوهُ منازلها ، يقع بيت سلامة الأخرس.

سـلامة أبٌ لأربعـة أبنـاء، لا يملـكُ إلاّ دونمـاً واحـداً ورثـه عـن أبيـه ، حيـث انبـرى يعمـلُ أجيـراً فـي حقـول النـاس لـيطعمَ أولاده، فقـد الـتهمَ العمـلُ المُضـنِ صـحة سـلامة و صـبغها بالشـقاء ، فهـو مـن النحالـة أنّـك تسـتطيع إحصـاء عظـام صـدره البـارزة، و لـم يشـأ الله أن يمـدَّ بطـول قامتـه، و اشـتعلَ برأسـه الشيبُ باكراً.

أكثـر مـا يحـزُّ فـي نفسـه أنّـه لا يجـد الكثيـر مـن الاحتـرام فـي نفـوس الأغلبيـة مـن النـاس و ذلـك لأنـه كمـا يزعمـون لا ينحـدر مـن عائلـة ذات حسـبٍ عريـق، رغـم أنـه متمتـعٌ بكثيـرٍ مـن الفضـائل و الأخـلاق الحميـدة ، و أولهـا الصدق و الأمانة.

بعكس زوجته نبيلة ذات الشخصية القويّة العنفوانيّة التي تسيطر بها على جميع أفراد أسرتها بما فيهم زوجها سلامة، فهي تفرض حضورها بمجرد أن تزأرَ بصوتها عالياً ، و تأخذ الاحترامَ عنوةً ، و بكسرِ الرأس حتى من أهل القرية و مع هذا فهي طيبة القلب، لكنها تُخفي هذه الطيبة وراء ستار شخصيتها، ملامحها تُخبركَ أنّها كانت في يومٍ ما جميلة جداً، بوجهها البيضوي و عيونها الخضراء الجريئة فهي تبدو دائماً على عجلةٍ من أمرها، تعقصُ شعرها الأشقر إلى الخلف دون اهتمام ، و نظرات عدم الرضا تلازمها.

كان سلامة يعتمد عليها بكل أمور البيت، فهو يخرج من الصباح ولا يعود إلا بارتحال الشمس وراء الأفق، يركضُ مقطوع الأنفاس وراء لقمة العيش ، لاهثاً كي يدفعَ الحاجة عن أولاده الأربعة.

أحمد الابن الأكبر، قوي الجسمِ، حسنُ الهيئة، هادئ الطبع، و متزنٌ بالكلام.

أخذ الثانوية العامة و تطوّع بالأمن العسكري رغم اعتراض أبيه لكن أمه كانت تؤيد قراره ، فسلامة لا أحد يُعير لوجهةِ نظرهِ أدنى اهتمام و كل أمانيهِ أن يتعلمَ أبناؤه و يصبحوا ذوي شأنٍ ذهبتْ أدراج الرياح.

و رأسه يحتشدُ بالأفكار التي لا تكتمل، و نثرات من الأمنيات الواهية في ذاكرةٍ تتآكلُ يوماً بعد يوم فما مرَّ عليه فرحٌ أو شعاعُ نورٍ في حياتهِ إلا خيوط الفجر الأولى المتسللة من شقوق النافذة المتأوهة ، و ما نامَ ليلةً إلا و قرص الجوع لمعدتهِ يؤلمه، قد تكون أكبر سعادة امتلكها إدراكهِ بأنّ لديهِ رغيف خبزٍ فائضٍ عن حاجتهم.

دارين في الثانوية العامة فتاةٌ تمتلكُ جمالاً هادئاً لا يجذب كلّ ناظرٍ لها، تأخذ من والدها ملامح الطيبة، و البشرة السمراء، و من أمها طول القامة.

و كأنّ الله أراد أن يُرضي سلامة و نبيلة ، فأعطى لأحمد و دارين سُمرة والديهما، و

بساطته، و ملامحه، ووهبَ لورد و ميرا شقرة و جمال والدتهما، و قوة شخصيتها التي تفرضها على الجميع.

كانت دارين تُشفق على أبيها، فهي تطمع أن تنهي دراستها لتحقق بعضاً من أمنياته، بخلاف ورد الذي لم يُكمل الثامنة عشر متهور، و فوضوي، و رغم شخصيته القوية داخل البيت إلا أنه يعاني من الحياء عندما يتعلق الأمر بكشف ما يجول في أعماقه . يملأ صراخهُ البيت، يريد إثبات رجولته المبكرة بأي طريقة، تليه ميرا الصغيرة المدللة طلباتها أوامر لدى الجميع.

كانت الأسرة تقعُ تحت نير العوز و الحاجة في منزلٍ بناه سلامة بلا أعمدة و ما زادَ أحوال الأسرة فاقةً اندلاع الحرب في سورية، تلك الحرب اللعينة التي تغلغلتْ في الحنايا لتتلفها ، إنها كالسرطان الذي يفتكُ بالجسد و خلاياه، و يُكبّلُ الأمن والسلام، يُحاصرُ الضحكةَ في عيون الأطفال، و يسرقُ فرحةَ الترابِ بالودق، و صرخةَ جنينٍ

مـن الـرحم انبثـق، و أحـلام الطفولـة بقـوارب عمن ورق.

هـذه الحـرب التـي قطفـتْ شـباناً بعمـر الـورود، أبـوا الرضـوخَ لتمـزّقِ وطـنهم، فانـدفعوا بأجسـادهم الطريـة دفاعـاً عـن كيانـه، و دفاعـاً عـن الأمـان الـذي سُلب مـن وجـودهم، و دحـراً للإرهـاب الـذي لـم يتـرك فاحشـةً إلا و اقترفهـا مـن ذبـحٍ، و قتـلٍ، و هتـكٍ للأعراض.

كـان سـلامة يتـابع أخبـارَ الأزمـة بمذياعـه الصـغير المتهالـك، المرافـق لـه أينمـا ذهـب و يهـزُّ رأسـه المخضّـل بالشـيب حسـرةً علـى افتقـاره لأخبـارٍ تُثلجُ الفؤاد، لـم يكـن حـال سـلامة بأفضـلِ مـن غيـره فـالجميع فـي القريـة تعلـوهم الكآبـة، و مـا التقـوا فـي مجلـسٍ إلا و كـل حـديثهم عـن الأوضـاع المتردية فـي البلـد، و عـن الغـلاء الفـاحش الـذي جعـلَ البطـون أكثـر جوعـاً و الأجسـاد أكثـر عريّـاً، و تحسـراً علـى الشـهداء، و الأمهـات الثكلـى ، و الأيتـام الذين سقتهم الحرب كؤوس الحزنِ باكراً .

اقتصرتْ حياة الناس على مواكبةِ ما يستجدّ من أحداث، حتى نبيلة بدأ يخفُ جبروتها وزئيرها شيئاً فشيئاً خوفاً على ولدها البكر أحمد، لكنها كانت تُعزّي نفسها أمام نسوة القرية بقولها: " لا أخاف على أحمد إنّه رجل" ، لكن قلبها يستعر لهيباً، خاصةً أنّه لم يعد يأتي إلى البيت لكون خدمته في ريف دمشق والطرق غير آمنة ، فهي تلتزم الصمت معظم أوقاتها و في كل حين تتنهد بعمق و تهمسُ سراً: " يا رب".

بينما سلامة يبقى في انتظار خبر يشرح صدره و يُطمئنه عن أحمد، وما يزيد هلعه قوافل الشهداء وجموع الأمهات الثكلى المتشحة بالسواد و القهر، و كلما مرّتْ قافلةُ شهيد تدمعُ عيناه و يتمتم:

" إنّا لله و إنّا إليه راجعون، رحمكم الله يا أبنائي و ألهمَ أهلكم الصبر والسلوان" ، و يعود لأشغاله التي لا بدّ منها حتى لا يموت أفراد أسرته من الجوع المتأبطِ ذراع الهم.

لـم يكـفّ أحمـد عـن التفكيـر بعائلتـه التـي غادرهـا كـان يؤلمـه فـراقهم، فمنـذ بـدء الأزمـة أخـذ يتنقـل مـن محافظـة لأخـرى بـدون أن يعـرفَ لـذّة النـوم، فـالخطر يطـوقهم مـن كـل الجهـات وهـم علـى الحـواجز لحراسـة مـداخل المدن.

كانـت أصـوات القـذائف تختـرق سـكون المكان.

" هل هذه سورية"!!

" متـى كانـت النيـران تلهـب سـماءها هكـذا!! والخـوف مـن المجهـول يتهـادى فـي شوارعها!!

أواهُ يـا وطنـاً سـرقوا منـه الضـحكات و حولـوا بحاره إلى مدامع...

لـم يعـد فـي صـباحاتنا حسـون يغنـي فقرقعـة البطون الجائعة تحتلُ المسامع...

لـم نكـن نعلـم حجـم النعمـة التـي فقـدناها آهٍ سوريتي"

هـذا مـا كـان يجـول فـي ذهـن أحمـد بينمـا يرتجـف هـو ورفاقـه مـن البـرد علـى جوانـب الطريق.

قال سمير ممازحاً أحمد :

- إن كُتبـت علـيَّ الشـهادة قبلـكَ فخـذْ (الجاكيـت) و سـأكون ذا فضـلٍ عليـك حتـى بعد مماتي.

و غـرقَ فـي ضـحكٍ هسـتيري تمخّـض عـن دمعتـين ذرفهمـا مـن بـين جفنيـه لينسـكبا علـى وجنتيه المغبّرة.

أطـرق أحمـد أرضـاً و قـذفَ عقـب سـيجارته بحنقٍ واضح و قال:

- إن فقـدتُكَ يـا صـديقي فلـن أهـتمَ بـالبرد و الجـوع لأنـه باختصـار سينكسـر ظهـري، و لـن آبه لما تقسو به الطبيعة بعد ذلك.

عـاد سـمير للقهقهـة التـي لـم تسـتطع إخفـاء مـا يجـول بقلبـه مـن أوجـاع ، و أخـذ يـردد ضـاحكاً متمايلاً بجسده:

لا تقولوا للدهر هات

و تنتظروا منه شيكات

ستعودُ أيديكم خاليات

و عيونكم منه باكيات

و أقدامكم على دروبه حافيات

كـان أحمـد يعلـم أنّ عمـره قصـير و لـن يعـيش ليـرى أهلـه ثانيـةً، يبكـي فـي أعماقـه لـيس لأنّــه ســيرحل عــن هــذه الأرض، و لكــن لأنــه سيفارق أباه سلامة.

لـم يكـن يـدرك قبـل هـذا الوقـت أنـه يحبـه لهـذه الدرجـة، سـلامة الفقيـر الـذي يترفـع النـاس عـن محادثته ليس لشيء إلا لأنه فقير.

لم ينسّ أحمد تلك الأيام التي كان سلامة يتسلل ليلاً إلى غرفتهم يراقبُ إغفاءتهم بحنان ليرفعَ رأسه المتعب إلى خالقه و يدعو لهم بصوتٍ خافت:

-" ربي احفظهم لي فهم كنزي الذي لا يُقدر بثمن"

و يغطيهم بعد أن يمسح بكفه الخشن على رؤوسهم و يمررها فوق أنوفهم ليتأكد أنهم يتنفسون .

أدمعت عينا أحمد و قال في سره:

" آهٍ يا سلامة كم أشتاق لرائحة عرقك ! " ، و مرت دارين في خياله ، تذكّر كم كان قاسياً عليها رغم هدوئها و رتابتها، " سامحيني يا أختاه" ، و أجهشَ في بكاء مر.

شهور مضتْ كأنها دهور مديدة ، و أحمد بعيد عن أهله و بيته...

كم طال الغياب !

الأيام تمضي ببطء قاتل و كل يومٍ غارة للمسلحين ، و اطلاق القذائف و النيران عليهم، و تدفق أخبار استشهاد الكثير في مختلف المناطق.

لم يكن أحمد و رفاقه ينتظرون على قارعة الدروب إلا الموت الذي تفوح رائحته مع الأثير..

* * *

حصلت دارين على الشهادة الثانوية بتفوق، و عمَّ الأسرة قبسٌ صغيرٌ من الفرح الذي غاب عنهم طويلاً ليس فرحاً من القلب إنما طيف فرحٍ يتراءى على صفحات الوجوه للحظاتٍ و يختفي لكن أكثر ما أسعد دارين أنها أخبرتْ أحمد بنجاحها ، و حان وقت تقرير المصير.

نبيلة تريد كلية الحقوق لابنتها و تتحيّن الوقت لتذهبَ مع دارين للتسجيل و لربما لترتدي الفستان الوحيد الذي اشتراه لها سلامة بعد زواجهم، بالرغم من أفول

موضـــته إلا أنّهـــا لا تجـــرؤ أن ترتديـــه إلا للضـرورة، فلـيس بوسـع سـلامة شـراء فسـتان آخر لها.

و كانــت المفاجــأة التــي حلّــت علــى الأســرة كالصـاعقة بعـد صـحوٍ طويـل، دارين رفضـت بشـدة و إصـرار الأمـر و قـررت التطـوع فـي الجيش.

أقـام سـلامة الحـداد لآخـر آمالـه، و نبيلـة التـي لـم تُجـدِ قوتهـا و جبروتهـا انفجـرت ببكـاء مستسـلم، و أمـام إصـرار دارين وافقـوا علـى مضض، لم يكن بوسعهم إجبارها.

و ذات صـباح التحقـت دارين مـع بعـضٍ مـن رفيقاتهـا بصـفوف المتطوعـات ، كانـت تبكـي بـداخلها لكنهـا أجبـرت نفسـها أن تشـقَّ ابتسـامة مصـطنعة علـى وجههـا حتـى لا تزيـد مـن عذابات والديها.

و بـنفس الوقـت شـعرت بأنهـا كبـرت عشـرة أعـوام عـن عمرهـا الحقيقـي، شـعورٌ بأنهـا مسـؤولة عـن قراراتهـا و نفسـها، و عـن وضـع

أحجـار الأسـاس لمسـتقبلها، و الأهـم مـن ذلـك أنها ستخفف من أعباء أبيها الثقيلة.

مضـت شـهور و الهمـوم تتـراكم علـى قلـب سـلامة و زوجتـه، أصـبح الوجـع وجعـين أحمـد و دارين فـي يـد القـدر، و الحـرب اللعينـة تشـتدّ أوزارهـا، و النـاس يتوحـدون فـي الكآبـة بينما سلامة مع مذياعه يترصد به الأخبار.

لـم يطـقْ الـدخول عتبـة بيتـه الـذي يتـأجج مـن جدرانـه لهيـب الحـزن، يرنـو كـل يـومٍ إلـى الشـفق المـودّع خلـف البحـر بعينـين يملأهمـا الأسـى، و يشـحذان الفـرح مـن أبـواب موصـدةٍ فـي وجهـه دائمـاً.. يعاتبـه... يلومـه .. يمـدّ يديـه الضـارعتين إلـى السـماء ، يتوسـل الأمـل مـن بـين نتـف السـحب التـي تزحـف بـبطء فيقول بكلمات تنزف ألماً:

-" هل تجدْ حياةً في موتي ؟ فليكن

تسكنُ رصاصتكَ جثتي لتحيا أنت ؟ فليكن

أنت الذي استحللت دمنا و حرّمت العيش لنا

حاولْ أن تعبرَ على جسدي

فقط أعدْ لي أبنائي

فقد تشابه لديَّ الحزن و الفرح

الحياة و الموت

الأسود و الأبيض

و توحّد بقيظ الصحراء

ما دامت استمراريتك رهينة بفنائي فلأمت.. "

لكنّ القدر مثل بقية البشر الذين لا يولون لسلامة أدنى اهتمام لم يفقْ من شروده إلاّ على صراخٍ يقطع كبد السماء.

استدارَ بفزعٍ إلى مصدر الصراخ فرأى نبيلة بجسدها الضخم تركضُ نحوه مثقلةً بكل ألوان الوجع ، تلطمُ وجهها بيديها، حافيةً ملطخةً بالوحول.

تسـمّرَ سـلامة فـي مكانـه و قـد اعتـراه شـعورٌ مخيـفٌ يمضـغُ كـل أجزائـه و قـد تـيقّن بـأنّ كارثةً حلتْ بهم.

لـم يتفـوه بحـرف فقـد تجمّـد لسـانه فـي جـوف فمه و يبسَ الدم في عروقه البارزة.

و مـا إن اقتربـت نبيلـة حتـى تـداعت علـى الأرض تغـرفُ التـرابَ بيـديها غرفـاً و تمرغـه علـى وجههـا فيمتـزجُ بـدموعها الغزيـرة و تمتمت بشفاه مرتجفة:

-" مات أحمد يا سلامة... مات ولدنا أحمد"

لوهلـةٍ أحسَّ سلامة بـأنَّ السماء قد وقعتْ علـى رأسـه، و اسـتبدلَ النهـارُ وضـوحه بغمـوضِ ليـلٍ مخيـف، لـم تعدْ ركبتـاه قادرتـان علـى حملِ جسده الضـئيل، فجثـا بتهالـكٍ، و رفـعَ كلتـا يديـه إلـى السـماء، ليتعـالى صـوته مخترقـاً صـراخ زوجته و السماوات السبع:

-" الحمد لله.. الحمد لك يا الله فليس لي أن أرفض مشيئتك و لكن قُصمَ ظهري و انطفأ النور من عيني.. الحمد لله" وأُغميَ عليه.

اجتمع أهل القرية، و نقلوا الزوجين المفجوعين إلى البيت، و بدأ بيت سلامة الأخرس يضجُّ بحزنٍ لا مثيل له، حزنٌ يأبى مفارقة الجدران فتصدعتْ.

و تسمعُ في نشرات الصباح

المنكّهة برائحة القهوة

عن مسافرٍ قطع آلاف الأميال..

و أبحرَ في كل البحور..

تاهت عنه الجهات فأطعمَ جسده لحيتان الدهور..

رسموا له هدفاً

و سموه بطلَ الأسفار

نصبوا له تمثالاً وسط مدنٍ تسكنه

و يسكنها

عاشَ وحيداً و الآن بكته كل الأمهات

و غدا محمولاً على الأكتاف

تُقلقُ مضجعه الزغاريد..

في ليلةِ استشهادِ أحمد استيقظَ في موعد حراسته بعد أن نام ساعتين فقط .

أوقدَ النار ليصنع القهوة ، كان سمير لا يزال غارقاً في نومٍ عميق، و بعد عدة محاولات استطاعَ ايقاظه.

جلسوا على قارعة الطريق ، و قشعريرة برد الصباح تجتاح جلودهم كانت شفاههم صامتة بينما قلباهما يضجّان بصخبِ الذكريات، و الخوف الممزوج بمشاعر الحيرة، الحيرةُ مما سيأتي و من مصيرٍ يلفّه وشاحَ الغموض.

اجتاحتْ أحمد نوبة سعال جاف جعلتْ وجهه يحمّرُ و عينيه تغرورقان بالدمع.، فقال ببحةٍ خلفها السعال:

-" معركتنا يا صديقي مع القدر، فإمّا أن يعلونا بمداحله و يهرسنا، أو يرأف بنا و يستهزأ ليجعلنا نصدقُ أننا غلبناه.

حرّكتْ كلمات أحمد مواجع صاحبه، فتنحنحَ قليلاً و قال:

-" لقد أوقدوا نيران الفتنة في سمائنا، و أوسعوا ضرباً جسدَ الفضيلة و أتلفوا بقايا ضمائرهم ليدوسوا بأخمص أحذيتهم عفّة الأرض و عذريتها، و لم يبالوا بالدمار و الرماد، لأنّ الشيطان في نفوسهم لم يرحم نفسه يومَ عصى الله و استكبر على خالقه.

يا صديقي نحن نحارب الذين وضعوا الرياحين على قبور وجدانهم ، فصرخةُ طفلٍ مذعورٍ لا تهزهم، و طلقةٌ في صدرِ أمٍّ تُرضع وليدها لا تقشعر لها جلودهم، يا أحمد نحن نحارب قاتلي الإنسانية.

كان أحمد يُصغي و قد غطّى التأثر صفحة وجهه، وتمتم بصوت خافت:

- نعم جئنا لنفتدي وطننا، و لنكون جسراً يعبر عليه من سيأتي بعدنا ، و سياجاً حصيناً لأرضنا ، فإمّا أن نحيا و إما أن نموت و ليبقى الوطن عزيزاً معافى كما كان، فهذا الوطن الغالي لن يحميه إلّا فقراؤه.

بعد مرور ثلاث ساعات جاءهم انذارٌ من قيادتهم للتصدي لهجومٍ قادم ، أخذوا أسلحتهم و انتشروا في كل الجهات يراقبون المنطقة و يترقبون كل حركة بحذر .

و فجأة اقتحمت سيارة سوداء الشارع المؤدي إلى مدخل المدينة ، و قد برز من شبابيكها ملثمون بثيابٍ سوداء يرشّون الرصاص كوابل المطرِ.

بدأ العناصرُ بإطلاق النار على السيارة، فتكوا بكل الرؤوس البارزة، و أصاب الرصاص مخزن الوقود فانفجرت السيارة بما فيها، لم يسلم أحمد و رفاقه من الإصابة،

فقد اخترقت إحدى الرصاصات صدر أحمد فوقع أرضاً يتخبط بدمائه، حاول أن يقاوم و أخذ بالزحفِ باتجاه الحاجز لكنه بدا بعيداً جداً ، كانت الرؤية معدومة و الجو ضبابي من آثار دخان الانفجار، و الألم يزداد فتكاً به.

سمعَ خطوات قادمة نحوه و أصوات عالية متشابكة غير مفهومة.

حملوه و وضعوه في سيارة الإسعاف و هو يغالب موتاً قادماً و حالةً من الإغماء تهدده.

أمسكَ بيدِ ممرضٍ بوهن و سأله بصوت متقطع:

- سمير أين سمير ؟

و أحس بأنه يدخل في حالة الإغماء رغماً عنه.

وصل إلى العناية الإسعافيّة ، و قد لحق به بعضٌ من رفاقه و لم يرَ سميراً بينهم.

سألهم بلسانٍ ثقيل :

- أين سمير؟

فرأى الجميع يطأطؤون رؤوسهم بحزنٍ بالغ يستفزّ العبرات، فعرفَ بأنّ صديقه قد سبقه إلى الموت.

سمير رفيق كفاحه و نضاله و أنيس لياليه و غربته.

تمتم بصوت ينضحُ عن روحٍ جريحة :

- لستُ بحاجة للدفء ما دمتَ بعيداً يا صديق العمر.

كان الدم يتدفق بغزارة من جرح أحمد ، و لم تنجع المحاولات لدرء الخطر عنه ، و لسانه يردد:

- حسرتي عليك يا سلامة كم ستبتلعُ قهراً يحرقُ أحشائكَ !!

كم ستنكسر يا أبي ! وكم من الحزن سأغلف به قلبكِ يا أمي ! سامحوني.. سامحوني..

و لفظ أنفاسه الأخيرة.

يا عائداً من مدن الدفء

تحتاجُ للحاف حنانٍ في ليلٍ

يرتجفُ برداً

لن تجدَ أبداً حضناً يلفّكَ

و دموعكَ كقطع الثلج مثل أطراف قلبك

الأبواب التي طرقتها لا زالت موصدة

لا تُفتح حتى و لو أدرت ظهرك...

بعد رحيل أحمد خيّمَ الصمتُ على الأسرة، صمتٌ أحكمَ قبضته على النفوس بعد أن امتصَّ كلّ صرخات الألم، وجمدها على أسطح الألسن.

و نبيلة في كل صباحٍ تُشعل الفحم لتضعَ حبات البخور عليها و تركنها تحت صورة أحمد التي تتصدر الصالة.

علّق سلامة عليها شريط حداد و هو يقول:

- الأجدى أن أعلقه على جبهتي ، لأن روحي قد ارتحلتْ معك يا بني ، لستُ أدري مَنْ مات أنتَ أم أنا ! .

بينما نبيلة تقف ساعات و ساعات ، تبكي بقهر الثكلى.

- ليتَ الله يمنحُ فرصةً ثانيةً للحياة بعد الموت كي يتسنى لنا أن نعترفَ بأشياءٍ مدفونةٍ في صناديق أضلاعنا بأسرارٍ منعنا الكبرياءُ من البوح بها، لنقول كل ما لم نقله.

ليت الله يا بنيّ يعطيني فرصةً لأمزّقَ لحمي أشتاتاً فداءً لك و أظنّ أنه كان سيغير حكمه، و يقبلُ افتدائي....

كـم منعنـي كبريـائي أن أُقبّـلَ قـدميكَ قبـل أن تـذهب! و الآن يـا أحمـد أتمنـى لـو يعـود الـزمن فقـط لأجعـلَ شـفتيّ تتبـاركُ مـن قـبلات قدميك...

لقـد اعتـاد كـل أفـراد الأسـرة تلـك الكلمـات التـي كانت نبيلة ترددها بقهرٍ يمزّق القلوب.

لا أحـد أشـقى مـن الأمهـات، لأنَّ الجميـع يسـيرون علـى أقـدامهم بنعـال صـلبة علـى دروب الحيـاة إلاّ الأم فهـي تسـير بقلبهـا علـى أشواك العمر...

الفصل الثاني

(ثورة ورد)

انتهزْ فرصتكَ و تألمْ قدر ما تستطيع في عهدِ شبابك لأنّ في كهولتكَ لن يكون لديكَ قلب يحتملُ الآلام...

بعد مضي خمس سنوات ، و الحربُ لا تزال متسمّرة في سماء سورية، و الغيوم القاتمة المحمّلة بالمحن تأبى الانقشاع..

تزوجت دارين من أحد أقارب والدتها ، و سكنت مع زوجها في العاصمة ، فقد توظفت بعد أن أنهتْ دورتها العسكرية في أحد مراكز الإدارة التابعة للسجلات العسكرية.

و ورد كان قد انتهى من دراسته في كلية الحقوق و قد اجتاز سنوات دراسته بمهارة،

لقد جعلته الآلام أكثر نضجاً و عقلانية من ذي قبل.

فلا مدرسة ولا جامعة بإمكانها صقل النفس البشرية كالأحزان و المواجع، فقد أُعفيَ من الجيش لأنه أصبح وحيداً بعد استشهاد أخيه أحمد.

لم يكن ورد عاقاً لكن صفعةَ والده سلامة القوية ، و بصقته اللزجة في وجهه جعله يتخيّل بأنه دخلَ في ثوب العقوقية.

كان سلامة حانقاً ، ثائراً كبركانٍ ينفثُ ثورة غضبه من أنفه كتنين يريد أن يُشعل كل من حوله.

فهو أصبح بعد رحيل أحمد يحيا بوجود ورد و زاد خوفه عليه أضعافاً من براثن القدر الذي يُعاندُ سلامة.

فقد رفض بشدةٍ سفر ورد إلى الخارج ليعمل هناك، و كما يقول ورد بأسى بالغ أنّه سوف

يسافر لينتشلَ عائلته من مستنقعات الفقر المتربّص بهم.

كان ورد ذاهلاً عن كل شيء فأخذَ بعضه هرباً من وجه أبيه، و قرر أن ينام تلك الليلة في العراء دون اهتمام لذعرِ والدته و دموع عينيها التي لم تنقطع يوماً واحداً منذ استشهاد أحمد ، ووعيد أبيه الذي كان يذهبُ هباءً بمجرد رؤيته.

حاول ورد كثيراً لكن محاولاته كانت تتبخر و تصير فقاعات تُفقأ على رأسه.

في تلك الليلة كان الجو يلتفُّ بعباءةٍ قاتمة من الضباب، يغفو برؤيته النظر و هو متيقظ و الأشجار هامدة و كأنها تصطفّ لتقديم العزاء في جو من الكآبة ، و السماء تزيد من لوعةِ نفسه برمادية سحبها التي تزمُّ شفتيها متأهبةً للبكاء.

و لكأن الطقس يُحاكي نفوسنا فيتلوّن بألوان مشاعرنا و عواطفنا.

أحسَّ ورد بتعبٍ يسري في عظامه ، فقفلَ راجعاً أدراجه مطرقاً في الأرض كاليتيم الشارد.

و ما إن وصل إلى مفرقِ القرية حتى لمحَ أبا حسين في دكانه الصغير يمسكُ بيديه كتاباً، و يداري به وجهه.

رجلٌ في الستين من عمره، جاء إلى القرية منذ عامين، و كان قبلاً يسكنُ في أحد ضواحي العاصمة دمشق، و يقول بأنه هرب من هناك مُجبراً لما دمره الإرهاب ، و عاث فساداً بكل شيء، و لكن رغم أقواله فهو يداري حقيقةً لا يريد البوحَ بها لأحد.

ومن كثرة ما قاسى من ألوان البلاء لم يعرف كيف يغتصبُ ابتسامةً، و يرسمها على شفتيه، صمته الصارخ يستهوي فضول ورد.

حيّاه ورد فلم يستدر كأنّه يتغاضى عن الرد كي لا يخوضَ بأيّ نقاش، الأمر الذي استفزَّ

ورداً ، فأعـــاد إلقـــاء التحيـــة بلهجـــةٍ جـــادّة و بإلحاح.

اســتدار بتثاقــل ، و أخفــض الكتــاب ، و أومــأ بيده و لم يلبث أن عاود لا مبالاته.

كـــان رجـــلاً طويـــل القامـــة، ملـــيء الجســـم، يتـوزع الشـيب فـي رأسـه بعشـوائية ، تقاطيعـه تعطـي انطباعـاً بطيبـةٍ لا محـدودة، لكنّـه يحيـا في عالمٍ صامت.

عـاود ورد مسـيره إلـى البيـت متوقعـاً إعصـاراً سـيلفه لكنـه فـوجئ بسـكون و هـدوء كأنـه إزاء طلل مهجور.

تسـحّبَ علـى رؤوس أصـابعه ليـدلف غرفتـه، فكانت بداية الرعد:

- متى ستنتهي هذه الحرب يا بني ؟

كـان سـلامة متكئـاً علـى كرسـيه و سـيجارته هي القبس الوحيد الذي يُضيء.

لم ينبس ورد ببنت شفة فقط جمد في مكانه، بينما عاود سلامة يجلجل بصوته :

- ألا يكفينا ما نالنا من هموم حتى تزيدنا حزناً و كمداً ؟ إنْ بقيت على إصرارك ستجلب لنا الموت سريعاً .

كان يتكلم بمرارة و قسوة اعتادوا عليها جميعاً في تلك الأيام ، لكنها كانت فقط قسوة بالكلام، ففي عمره كله لم يرفع يده و يضرب أحداً من أولاده ما عدا تلك الصفعة الملعونة التي ألبسته ثوب العقوقية ، فرعده و برقه بلا أمطار و بلا سيول.

كلامه استفزَّ دموع نبيلة التي كانت تقف على النافذة تترقب وصول ولدها ، فأطلقت العنان لبكائها.

و هنا تجرأ ورد على الإجابة بلسانٍ منهك :

- أسف جداً لما أسببه لكما من أحزان.

قال سلامة و قد نفث دخان السيجارة بحزن :

- هذا ما استطعت قوله ؟ ليتني متُّ قبل أن أسمع منك هذا.

أسرعَ ورد إلى غرفته ، و أوصدَ بابها قبل أن يُكمل حديثه و لم يذقْ طعماً للنوم تلك الليلة، كان كالجثة الهامدة ينظر إلى اللاشيء.

صارت أفكاره تعوي و تزأر، و ما تزال في قوقعة بعيدة أكثر من البعد لتصلَ إلى أذن دون جدوى.

فمهما تراكمت السنوات ، و بات العمر شيخ العجائز لن يكبر هنا في عين إنسان.. يحملُ تحت إبطه وثيقة شرفه و تحت الآخر وثيقة أمانته، و بعد أن تمزق الأشواك لحم قدميه و يصدأ لسانه في جوف فمه سيلتقط وثائقه من تحت إبطيه ليجدَ حروفها مبلولة و مندثرة بعرقه المتعفّن.

لم يعتدْ ورد هذه المعاملة من أبيه طوال عمره، فقد كان الدلال يلفّه من كل صوب ، و رغم فقر حالهم لم يرفضوا له طلباً، و ما

تـأففوا مـن احتياجاتـه يومـاً ، و الـذي يزيـد همـه أنهـم يقفـون فـي وجـه سـفره ليطـردَ غمـائم الفقـر مـن سـمائهم ، و تقـوده خيالاتـه إلـى أخيـه أحمـد كـم طـال غيابـك يـا أخـي! و ينفجـر ببكـاء ظـلّ يحبسه طويلا .

" غـداً سـيكون أفضـل" عبـارة نرددهـا دومـاً لنزيـل سـحابات اليـأس ، و نُقنـع أنفسـنا بأكاذيـب شـمس شـباط نلـوكُ بـين أضراسـنا بضـع قشّـات داعبتهـا أناملنـا فـي لحظـات ملـل دون انتبـاه، لأننـا نعصـرُ أفكارنـا لنسـترجع أخيلـةَ أيـامٍ عشـناها فيمـا مضـى ملوثـةً بقطـرات سعادة، لكنّها الآن تمطر علينا بوابل كآبة...

لماذا نبذلُ جهداً لنعتصر ما يؤلمنا !

هنا كانوا... هنا جلسوا ..

و هنا في أروقة الأيام ضحكوا ..

و على أعشاب القلب ركضوا.

ذكريات تحفرنا بمحاريث الألم لنغدو في آخر المطاف خنادقاً عميقةً من جروحٍ لا تدملها آلاف الدهور...

* * *

أضربَ ورد عن الطعام علناً كي يرضخوا له و كان يسرق نفسه خفيةً و يفتح الثلاجة ليلتهمَ الطعام مع شكٍّ يلازمه بأنّ أمه تعلم بهذا، و إلّا لفقدت صوابها من إضرابه.

لربما كانت تعدُّ أرغفة الخبزِ قبل أن تنام ، و تنفرجُ أساريرها في الصباح كلما رأتْ الأرغفة تتناقص لهذا أخذت تُكثرُ من إحضار الفاكهة مساءً، و تركنها في سلةٍ على طاولة المطبخ.

أصبحوا يتجنبون الحديث معه، حتى ميرا كفّتْ عن التعاطي معه بأي نقاش، و هو بدوره لم يحاول الكلام معهم.

وفي أحد صباحات يوم الجمعة استيقظ على رائحة البخور المتسربة إلى غرفته من خروم الباب ، نهض متكاسلاً بعد ليل من الأرق ليرى أباه يقرأ سورة ياسين كعادته، و أصوات الأواني تترامى إلى مسمعه من ناحية المطبخ.

ارتدى ثيابه على عجل، و خرج متجاهلا الجميع و صافعاً الباب ورائه ليعبّرَ عن رجولته الكاذبة.

مشى على الطريق الفرعي كي لا يصادف أحداً من المعارف ، لكن عبثاً كانت محاولاته ، فقد أمسكته جارتهم "أم سهيل" التي لم يعتدْ لسانها أن يغفو لدقائق في جوف فمها :

- أين السلام يا ورد ؟ ألا أستحق التحية

يا ابن نبيلة؟

- العفو يا خالتي لكنني لم أنتبه لوجودك.

قالها بتذمر

- هاها لم تنتبه ؟ و من ذا الذي يشغلك لهذا الحد ؟ أتكون في ورطة ؟ و أين ذاهب في مثل هذا الوقت ؟ ، تعالَ لأشربَ معك قهوتي، لا أحب أن أشربها وحدي.

كانت ترشّ الكلام رشاً كالمدفع الذي لا يرحم ، و لا يجعل هل فرصةً للرد، و بدوره يهزُّ رأسه دون استيعاب لأي حرف من كلامها.

أم سهيل لا تتجاوز المتر الواحد ، لكنها داء سرقَ من زوجها المسكين و أولادها ألسنتهم لتبقى هي سيدة الكلام في كل وقت و كل حين، و كانوا يضيقون ذرعاً بثرثرتها حتى أوصلتْ أبا سهيل إلى غرفة العمليات أربع مرات، و دعواته بالخلاص منها كانت دون جدوى.

لا ريب أنّ غضب والدي هو مَنْ زرع أم سهيل في طريقي.

هذا ما راود تفكير ورد ، فأخذتْ قدماه تتشابكان لسرعتهما حتى ابتعد عنها، و أخذ يلعن الطريق الفرعي و العام.

" هذا ما يريده أبي أن أبقى هنا ، و أخزّن شهادتي الجامعية في صندوق بالٍ تأكله الجرذان الجائعة، و لا أُحصّل في ذاكرتي إلّا أحاديث أم سهيل و غيرها.

ابن محمود أجرى عملية زائدة دودية ، و لكن هذا لا ينطلي على خالتك أم سهيل إنهم يخجلون من عملية الفتق و يقولون زائدة، و ابنة نظيرة اختلى بها عشيقها يا للعار! يا للفضيحة! ،و عبود تخاصم مع ابن خاله من أجل شبر أرض. "

بدأت الهموم تتقافز في مخه، و تتخبط بوحول أفكاره في قريةٍ لا يحكمها إلّا إله الجهل ، و قانون الفقر.

لا يوجد هناك موطئ قدمٍ لحذائك بين حشود المتسولين المستلقين على جوانب الطرقات بقروحهم المدخّنة، و أصوات نسوةٍ تطلبن تخفيض الأسعار من الباعة المتجولين و جدالهن حتى يحصلن على أرخص الأصناف بما يناسب نقودهن الشحيحة.

كان على وشك البكاء بصوت عالٍ، و هو يهيم بتلك الأفكار التي تقذفه يمنة و يسرة ليشعر بالغثيان.

الفصل الثالث

(الحب)

لا شيء يتوحّد .. يتوغل في دمي إلاك

تنام على دروبي خطوات مسافرٍ

قد يكون عتيق كالزمن..

و عندما ينام الحزن في نفسي

أحلمُ بعناقك آخر الليل

أحلم أن أقتلع جذور النهار

لأظل أحلم بعناقك...

دخـل ورد دكـان العـم أبـي حسـين حيّـاه بجفاء و طلب علبة تبغ.

تفحصــه أبــو حسـين مــن رأســه حتــى أخمــص قدميه باستغراب كأنه يؤنبه.

إنّهـا المـرة الأولـى التـي يبتـاع فيهـا التبـغ، لكنـه ناوله العلبة متظاهراً بعدم الاكتراث.

أعطــاه ورد ثمنهــا ، و قبــل أن يخــرج بــادره العم بسؤال مفاجئ:

- ورد إلى أين ؟

- إلى أين ! ماذا تقصد يا عمي؟

رشـقه أبـو حسـين بنظـرةٍ تسـيلُ حنانـاً لـم يرهـا ورد مـن قبـل و مسـحَ بكفـه علـى شـفتيه كأنّـه ندم على ما تفوه به لكنه استطرد قائلاً:

- أرجــو المعــذرة و لكننــي أراك علــى غيــر طبيعتك هذه الأيام، هل أنت على ما يرام؟

أم لديك مشكلة فأساعدك على حلّها يا بني؟

ابتسم ورد نصف ابتسامة ما انفكت أن اختلطت بنظرة حزن لا ارادية:

- شكراً لاهتمامك يا عم، لا يوجد شيء مهم، فقط أريد أن أمشي في غابة الأرز المجاورة و.....

فقاطعه أبو حسين قبل أن يُكمل:

- إن كنت يا بني تحب أن يكون لك أنيساً فأنا موجود، و أتمنى أن أكون الصدر المعزّي.

ارتاح ورد للعرض الذي قدمه له أبو حسين، و لكن الحياء من البوح لما في قلبه استبدَّ به، شكره بحراره و ذهب مسرعاً.

كان بحاجة ماسّة لعزائه فلماذا لم يبقَ؟

و لم هذا الخجل المستبد بكيانه يستعمره كلما حاول البوح بهمومه !

كـان مسـتعداً أن يركـع أمامـه و يتوسـل إليـه أن يبـدد الضـباب المتـراكم فـي أعماقـه لكنـه لـم يفعل.

"تبـاً لـذلك الحيـاء الـذي أورثـوني إيـاه" تمـتم بغضب.

مضـى أسبوع علـى لقائـه بـذلك الرجـل الطيـب، كـان كيانـه مـدمّى و صـراخه لا يتعـدى جـدار صـدره، فـالرفض لواقعـه.. لـنمط حياتـه.. لـذكرى أحمـد التـي لا تبـرح محـيط رؤوسـهم، و الألـم الـذي تسـببه فـي قلـوبهم كـل هـذا أطـاح بصوابه.

مـاذا سـيجني بعـد كـل هـذا التعـب و الكـد فـي الدراسـة ! هـل سـينتهي كأبيـه شـخص نكـرة لا أحـد يُقـيم لـه وزنـاً أو اهتمامـاً ! و بنهايـة المطـاف يلملـم ثقافتـه و شـهادته التـي سـرقت مـن نظـره و اتكـأتْ علـى فقـرات ظهـره زمنـاً ليرميهـا عـرض بحـر الجهـل تتقاذفهـا الأمـواج هازئـةً بهـا، و تتجشـأها إلـى الشـواطئ لتتبخـر على الرمال و تزول كما يزول كل شيء!

اقتحمتْ نبيلة الغرفة وورد غارق في الهم، متجهم في وجه الكون بأسره، تسرب إليه شيء من الارتياح بدخولها لكنه لم يبدِ أي اهتمام، و بصوتها الذي يشوبه الحنان قالت:

- حبيبي و مهجة قلبي إلى متى ستبقى وحيداً لا تكلمنا ؟، ألهذه الدرجة تمقت التحدث إلينا؟ .

اقتربت منه و مسحت بكفها على شعره الناعم المبعثر ، و قفزت دموعها تنساب على خديّها.

- ماما أرجوكِ لا تبكِ و تضعفيني، فأنت تعلمين أني لا أريد الإساءة لأي منكم، لكني أريد تحقيق ذاتي، و دفن الفقر و الجهل الذي يستولي علينا.

قالت بصوت منخفض يكسوه الحزن :

- و هل الغربة يا ورد هي التي ستدفن فقرك و جهلنا ! نحن لم يبقَ لنا بعد رحيل أحمد إلاك.

قاطعها بنبرة عصبية:

- لـم تحاصـروني بأنـانيتكم التـي تخنقنـي ؟ تريـدون أن أبقـى بـدافع حـبكم و تضـربون بـأحلامي عـرض الحـائط لا تقيمـون أي وزن لمبـادئي ، و أهـدافي، أنـك و أبـي تسـيرون مكبلـين بسلاسـل التقاليـد و الأعـراف و العواطـف و تبغـون تكبيلنـا معكـم بـدون احتجـاج منـا، لمـاذا يـا أمـي تحـددون مصـائرنا و تقضـون علـى إرادتنـا و تطلعاتنـا بجهلكـم المميت؟.

جمـدت أناملهـا علـى رأسـه و لـم تنطـق بحـرف فقـط أدارت وجههـا الحـزين و أقفلـت البـاب وراءهـا بانكسـار فهـي لـم تتوقـع أن تسـمع هـذا الكلام من أكثر الناس قرباً و حباً لها.

خـرج ورد مـن البيـت متجهـاً إلـى دكـان العـم أبـو حسـين فوجـده مغلقـاً، فقادتـه قـدماه إلـى بيته.

تـردد قلـيلاً قبـل أن يطـرق بابـه ، و بعـد جهـد طــرق طرقــاً خفيفــاً ، مــرت دقــائق حتــى انفرجت أسارير الباب الخشبي.

كانـت تقـف بالبـاب فتـاة وقـف عقـل ورد عـاجزاً عــن إدراك مــدى جمالهــا ، وجــه طفــولي كقــرص البــدر فــي ليلــة صــيفية ، و عيــون ســوداء ناعســة بعــض الشــيء تنشــر الســحر علـى مطـارف أجفانهـا، تميـل إلـى النحولـة لكـن نحولتها لا تخفي جمال أنوثتها الصارخ.

أحــسّ بــوهجِ نــارٍ يلفــح وجهــه، و بحــربٍ ضـروس مـع لسـانه الـذي تجمّـد لوهلـةٍ ، و بعـد صمتٍ لم يعِ مدته قالت الفتاة بخفر عذراء:

- أهلا بك، من تريد؟

تلعثم و قد لفحته بنسيم رائحتها و قال:

- هل العم أبو حسين هنا؟

و فجأة سمع صوت العم من الداخل يصدح:

- أهلاً ورد تفضل يا بني.

تنحت الفتاة جانباً لتسمح له بالدخول، فدخل وهو مقطوع الأنفاس، و ما إن رآه العم حتى عانقه و كأنه لم يرَ وجهه منذ سنوات عدة، و توجه إلى الفتاة قائلاً:

- لميس ابنتي إنه ورد ابن العم أبو أحمد سلامة .

و نظر إلى ورد مبتسماً و أردف:

- إنها لميس ابنتي جاءت لتكمل دراستها هنا في جامعة تشرين .

قال ورد و الحياء لا يزال واضحاً بين قسماته:

- تشرفت بحضرتكِ أنسة لميس.

قال العم لابنته:

- عصفورتي هل لكِ أن تحضري لنا شيئاً نشربه ؟ ماذا تحب أن تشرب يا ورد؟

رد ورد بخجل يفتك ببقايا لسانه:

- شاي إن أمكن.

ابتسمت لميس ابتسامةً جعلت قلب ورد يخفق بقوة.

أنبل النظرات نظرة حبٍ خاطفة تسرد لك دهراً من المحبة الخالصة، لقد امتلكت لميس قلب ورد من نظرة واحدة ، و أصبح يتحيّن الوقت ليغلق العم أبو حسين دكانه فيكون بإمكانه الذهاب إلى بيته ليتسوّل من لميس بعض النظرات، فقد غدا مسكوناً بهواجس مختلفة، هاجس السفر، و هاجس الحب الذي راوده على حين غرة.

و في أحد المساءات كان ورد يشرب الشاي مع لميس و والدها بعد أن تخلى قليلاً عن حيائه، و أصبح بالنسبة لهم من أهل البيت،

أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث، و فجأة قال العم أبو حسين مازجاً بين الجد و المزاح:

- أين الكنار الذي أهديتك إياه يا عصفورتي البيضاء؟

ردت لميس و قد تلونت بشيء من الحزن:

- لقد وهبته الحرية لأنه يرجوها ، فالعصافير لا تحبنا.

قال ورد بدهشة :

- ماذا تقصدين يا لميس؟

لازمتها ألوان الحزن و أجابت:

- إن الطيور متنبئة بسوئنا أكثر من أي مخلوق أو أي عرّاف ، فهي تأبى ثراء أقفاصنا و تفضل شحَّ و صخب الفضاء، و الموت على أطراف الشطآن على أن تبقى عندنا.

للطيـــر كبريـــاء لا يمتلكـــه البشـــر ، ولا حتـــى الكـــلاب التـــي تطـــأطئ رأســـها ذلّاً و تتـــدلى ألسنتها التـي يقطـر منهـا زبـد ريقهـا الكريـه عنـد أقدامنا تستجدي طعاماً متعفناً زاد عنّا.

قـال ورد و قـد أُعجـب برجاحـة عقلهـا و سـعة تفكيرها:

- و هل نحن البشر بهذا السوء يا لميس؟!

- إنّ النفـــاق هـــو القنـــاع الـــذي يرتديـــه أكثـــر النـاس فـي حفلـة تنكريـة، و لا يسـقط إلا عنـدما تسدل الحياة ستائر الفناء.

قهقـه والـدها و كـان يبـدو عاصـفاً حتـى حـين يقهقـه فرحـاً، و أردف بعـد أن أوقـف ضـحكته بغتة:

- إن هـذه الحـرب يـا ورد جعلـت مـن الكآبـة معتقداً و كتاباً مقدساً، و خيـال الـوطن المنهـار أنقاضـاً جعـلَ مـن لمـيس ضـحية لأحابيـل قلبهـا المضرج بالذكريات .

كـان ورد يـزداد بهـا غرامـاً و شـوقاً يومـاً بعـد يــوم، و هــي بــدورها بــدأت تشــعر بالحــب تجاهه.

لقـد أحبهـا بـنهمٍ ، و غـدت نـوابض قلبـه تـئن باسمها فكل شيء كان يعبق برائحتها.

إنَّ بعـض النـاس يترجمـون الحيـاة مـن انبثـاق فجـر الحـب علـى أعمـارهم و لـيس يـوم تلـدهم أمهـاتهم ، فالحيـاة لا تُحـدد معالمهـا بإدراكـات الحـواس إنمـا بإدراكـات القلـوب و الإحسـاس بالحب.

فــي كــل يــوم بعــد مغــادرة منزلهــا يقضــي العاشــقان ســاعات و ســاعات يتناجيــان علــى الهـاتف حتـى يغلبهمـا النعـاس ، لقـد صـارت جـزءاً مـن روحـه وهـو أيضـاً غـدت الأكـوان تتجسّـد فـي محـيط عينيـه، و عنـدما كـان يسـألها إن كانــت تحبــه ليطمــئن قلبــه كانــت تقــول بهمس عاشقة تذوب حنيناً:

- و اعجبـي مـن الـذي تـدور الأرض لأجلـه ، و النهـر منـه يقتفـي أثـر البحـر ، و فـي مقلتيـه

سـرّ الحيـاة و لقلبـه وحـده يسـقط المطـر كيـف يسأل عن مدى حبه في جوارحي.

كان كلامها برداً و سلاماً على جمر أشواقه.

لقـد تبـدل حـال ورد و لـم يعـد كئيبـاً ولا حزينـاً بعـد أن اسـتطاع أن يتبـوأ عـرش قلـب لمـيس، و فاضت جوانحه عشقاً بها.

و هــذا مــا جعــل ســلامة و نبيلــة يشــعران بالراحة و الطمأنينة.

كـان أبـو حسـين متزوجـاً مـن امـرأة دمشـقية ، مــن عائلــة عريقــة ذات حســب و نســب، و أنجـب منهـا حسـين و لمـيس، لكـن أبـا حسـين لـم يرضــخ لســلطة زوجتــه و عائلتهــا ، فكانــا دائمــي النــزاع و الشــجار، و الــذي زاد الأمــر سـوءاً حادثـة ولـدهما البكـر حسـين الـذي كـان ضـابطاً فـي الجـيش، و تعـرض للاغتيـال علـى يــد مجموعــة إرهابيــة تكفيريــة فــي بــدايات الحرب.

فقرر الوالد الهروب حزناً لخسارة فلذة كبده الذي كان عزاؤه على حكم عائلة زوجته ، و بعد أن بلغت لميس سن الرشد و ضاقت ذرعاً بفوقية أمها آثرت العيش مع والدها، و إكمال دراسة الفلسفة في كنفه.

يبدو أن القدر قادها إلى حب سيغير مجرى حياتها كلها.

آه من الأيام و من نهاية الموج

كيف أقول بأنني أحلم

و أن وجهك يذكرني باكتمال القمر!!

بدأ الحب يُشيّد أركان روحٍ تهالكت يوماً ، و يتأبطُ السعادة ليدلفَ جدرانَ كيانه الذي ظنَّ بأنه تفحّم و ترمد، لم يكن من شيء يشوب سعادته إلا الذكريات الموجعة، و خيال أحمد الذي لا يفارقه، و انحناء رأس أبيه ذلّاً و فقراً، و قهر أمه التي تقضي الساعات تناجي الحضور اللامرئي لولدها الشهيد.

نمشـــي و نمشـــي و نتعـــب و نعطـــش ، نحـــاول فـــي منتصـــف الطريـــق أن نتفيـــأ بجـــذعِ ذكـــرى نتقـــي بـــه قـــيظ الشـــوق الـــذي يحيطنـــا فـــي كـــل مكـــان، ننتقـــي بكـــل دقّـــة أكثـــر مـــا أوجعنـــا لنجـــدَ أننـــا نســـتظلّ بعبـــاءة الوجـــد المثقوبـــة ليشـــتعلَ بنـــا الشوق أكثر !!

الفصل الرابع

(المذلّة)

إنّ الصراع مع النقاء و مع الصفحات البيضاء

دائمٌ و أزلي ما دام هناك عواصف

من غبار الرياء تأتينا...

توالــت الأيــام و الليــالي و ورد غــارق فـي يـمّ حـب لمـيس ، و لمـيس تنضـحُ سـعادة و حبـاً، فقـد أنسـاها ورد كـلّ مـا مـرَّ عليهـا مـن غمائم رمادية.

لكـن الحيـرة بـدأت تعصـف بـورد ، كيـف لـه أن يترك لميس و يسافر!

بقاؤه في القرية سيجعله مغلّفاً بالفقر، فكيف سيُقدم على الزواج من لميس وهو لا يملك شيئاً !

إنها ستشقى معه، و لن يستطيع أن يؤمن لها حياة هانئة ، لقد دبغتْ هذه الأفكار روحه بالقلق و الحيرة.

كيف سيبقى هنا و يرضى بشبح الفقر، و كوابيسٍ لازمته منذ الصغر بانهيار سقف بيتهم فوق رؤوسهم و هم نيام!!

و كان في أحيانٍ أخرى يحسُّ بوخز مؤلم في ضميره جراء عدم اكتراثه لتوسلات أمه و دموعها ، و أحزان أبيه التي لم يعرها أي بال.

ما أقسى قلوب الأبناء !!

إنّ الأم تبدد خيوط سعادتها لتغزلَ بها أوشحةً و شباكاً تداري بها الآلام المحيقة بأولادها ، و في المقابل يأبى الأولاد

الانصياع لرغباتها مهما بلغت درجات توسل الحضن الحنون لهم.

و مرّ طيف سلامة الشاحب في سراديب خياله..

أبي و حكاية زمن مفجوع بالأحبة، و عبق زهور تحتضر ، و أحزان سواحل بحار بلا سواحل....

أبي و بكاء السنين و حكاية جدولِ دمع ينتهي بشراع مزقته العواصف ، و طفلاً متهالكاً و ممزقاً على ظهر الماء....

أدمعتْ عينا ورد من غبار تلك الأفكار، و عاد يفكر بمالكة قلبه لميس، و كيف له أن يسافر و يترك قلبه هنا !

و قرر أن يكتب لها وهو على حافة الحزن:

" لم أكن أعلم قبل الآن أنّ من عينيك تنسجُ العصافير سمفونية الصباح.. و أنّ من

عطـــرك تســـرق نســـمات الربيـــع عقـــود الأقحوان..

و حـــروف اســـمك ســـلاطينٌ علـــى أحـــرف الهجاء.

حبيبتي لميس:

آلاف الأفكـار تهـرول لتحتـلَ سـيادة كاملـة فـي رأسي بينما صوتك يخترق أضلاعي..

صحوي ومنامي..

كم أحبك ! لدرجة أنّ ضوءك يملأ كياني

كنـتُ قبـل ولـوج حبـك لقضـبان صـدري أرفـضُ البقـاء هنـا، و أرفـض المكـوث تحـت مظلّـة الفقـر و الحرمـان، لـم يسـتطع أحـد إرضـاخ إرادتـي رغـم كـل التوسـلات و الرجـاءات، و عنـدما بـزغ فجـرك أصـبحتُ متخبطـاً بوحـول حيرتي .. لا أعرف أي الطرق أسلكُ.

وحده الحب من يجعلنا نقف عاجزين أمام جبروته ، فماذا عليّ أن أفعل ؟ و ماذا أستطيع أن أقدم لكِ إن آثرتُ البقاء؟

فقري... و قلّة حيلتي .. لستُ أدري يا حبيبتي ..لستُ أدري.

حبيبك ورد

كان القلم يرتجف بين أنامله كطيرٍ مذبوح.

طوى الرسالة و دسّها في مغلف، و أودعها أحد أدراجه.

* * *

كان سلامة عائداً من بيت الأستاذ فضيل ، أخذ أجرته الشهرية التي يتقاضاها مقابل الاهتمام ببستانه الكامن في أول القرية و قد زرعه بأشجار الليمون.

لم يكن الأستاذ فضيل مُقيماً في القرية بل في محافظة اللاذقية حيث يعمل كاتباً للعدل في

المحكمة المدنية، و زوجته مدرّسة لغة انكليزية ، لديه ابنة واحدة اكتفى بها من الحياة بعد أن قضوا سنيناً في عيادات الأطباء لينجبوا لكن دون جدوى.

ابنته ميرفت تتربع على عرشٍ من الأخلاق الرفيعة ، فائقة الشجاعة و الثقافة و حُسن المعشر، و من دواعي السرور أن ينظر المرء إليها، فاستعاض بها فضيل و زوجته عن كل حرمانهما.

كانوا يترددون إلى القرية في أيام العطل لقضاء الأوقات في هدوء بعيداً عن صخب المدينة و ضجيجها.

أخذ سلامة نقوده شاكراً نُبل أخلاق الأستاذ فضيل ، و لُطفَ استقباله ، فقد كان يشعر تجاهه بكثير من المحبة و العرفان لأنه ليس كغيره من الناس ممن يترفعون عن محادثته و التعامل معه.

و بدا يمشي بتثاقل من آلام مبرحة في أسفل ظهره تحتلُ معظم فقراته ، التقى بلميس ابنة

العم أبو حسين التي غمرته بأعذب السلام و هي في طريقها إلى ميرفت ابنة فضيل ، فقد توطدت صداقتهما في الجامعة و أصبحت لميس تزورها عندما تأتي مع والديها في أيام العطل.

تابع سلامة خطواته الثقيلة ، و فجأة ظهرت أمامه سيارة حمراء يتعذر رؤية من بداخلها بسبب زجاجها الأسود ، تترنح كسكيرٍ، فتارةً تتجه يميناً، و تارةً تنحرف أقصى اليسار، و أصوات الموسيقا الصاخبة تمتزج بقهقهات عالية ماجنة تملأ سكون المكان.

ذُعرَ سلامة و لم يعرف كيف يتقي خطرَ السيارة ، فوقف على الجانب الأيمن للطريق بجانب شجرة صبّار عتيقة، و عادت السيارة تترنح كخصرٍ راقصة شرقية ذات اليمين و ذات الشمال.

لكن سائقها جعلها تنحرف باتجاه سلامة ، فتلاصق جسده الهزيل بشجرة الصبار حتى انغرست الأشواك بظهره و ساعديه ، فتزايد

الضحك الهستيري ، و نزل شاب في العقد الثالث من العمر يلبس من الثياب أضيقها، و يفتح قميصه إلى صرته ليتدلى على صدره طوقٌ من الذهب الثمين ، كان كالفتاة ليلة زفافها ، و بدأ يتمايل و يضحك و سيجارته معلقة على جانب شفته.

قال لسلامة و عيناه تنتقلان بينه و بين شلته الذين أخرجوا رؤوسهم من النوافذ:

- هل أنت أعمى أيها المتسوّل الحقير ؟

هزَّ سلامة رأسه علامة الموافقة ، فهو يعلم أنه فتى لا يملك وعياً و إدراكاً لمناقشته ، و إن ناقشه فلن يقنعه لأنه يفتعل الأمر ليجعله مسخرةً يلهون بها.

لكن حركته هذه استفزّت الشاب ، فأمسك بياقة قميصه و صار يهزّه بعنف :

- يجب أن تتعلم كيف تحترم أسيادك أيها الحقير .

مدَّ شاب مخنث رأسه من النافذة الخلفية وهو يحتضن فتاة مطلية بشتى ألوان المساحيق و قال له:

- علمّه الأدب يا معلم مناف فهؤلاء الحثالة بحاجةٍ للرفس و ضرب العصا.

التفت إليه معلمه مناف و أعقب ضاحكاً:

- لا يحتمل هذا المتسوّل أن يُضرب بقشة .

و بصق بوجه سلامة متابعاً وهو يشير بإصبعه في وجهه :

- إيّاك أن تمسح بصقتي حتى تجفَّ لوحدها على وجهك القذر كي تتبارك أنت و أمثالك بلعابي.

و تعالى الضحك الماجن .

أفلتَ قميص سلامة الذي كان بحالة لم يعشْ في عمره مثلها حتى أنه لم ينتبه أو يشعر بصفق باب السيارة الأخرى التي توقفت

جانبه فإذا به الأستاذ فضيل يتجه نحوه و قد راعه ما رأى و سأله :

- عم سلامة ما بك ؟ ومن هذا الغلام الذي يبصق في وجهك؟

قهقه المدعو مناف و قال :

- هذا المتسوّل اعترض طريقي ، و أنا ابن أبو العلاء و جميعكم تعرفون من هو أبي ليأتي حقير كهذا و يعترضني....

قاطعه فضيل قائلاً باستهزاء:

- و لماذا يتواضع ابن أبي العلاء و يأتي إلى هنا؟

ردَّ بارتباك :

- و ما شأنك أنت؟ أنا أذهب حيث أشاء ، أيعقل أن تكون هذه القرية ملكاً لك وحدك؟

قال فضيل و نظرة الازدراء و القرف لا تزال تعلو وجهه:

- يا غلام هذا الرجل الذي أهنته قدّم فلذة كبده فداءً لهذا الوطن، فهو أبو شهيد و ليس متسولا كما تقول ، أما أبو العلاء فهو أبو فاسق مثلك ، ابنه استشهد لتحيا أنت و أمثالك من الجبناء الذين تقضون حياتكم بالعهر و العربدة.

و هنا أصبح غضب مناف أشدّ زخماً و اعتلت الحمرة وجهه، فصرخ بوجه فضيل :

- ستنال عقابك على وقاحتك و إهانتك لي و سترى ، و نظر إلى سلامة قائلاً:

- تفوه عليك و على ولدك..

و حاول أن يمسك مسدسه المعلق على خصره إلا أن فضيل كان أسرع منه فالتقطه و وجّهه على رأس مناف الذي صار يرتجف رعباً ، فأردف فضيل :

- سأقتلك أيها المخنث إن تفوهت بحرف ، خذ قمامتك و اذهب إلى مواخيرك أفضل من ذهابك إلى المقبرة

اندفع فضيل نحوه و صفعه على وجهه ، و أخذ يدفعه باتجاه السيارة وهو يقدحه بالسباب و الشتائم متمتماً بحنق:

- افعل أنت و أبيك ما تشاؤون فأنتم جبناء و الله كفيل بإحراق المفسدين أمثالكم ، و قذف له المسدس ، انحنى مناف و أعاده إلى خصره ، و فتح باب السيارة ، و الشرر يتطاير من عينيه ، و كان قد خمد ضحك رفاقه ، فانطلق بسرعة جنونية مخلفاً وراءه ضباباً كثيفاً من غبار الطريق الترابي.

لم تكن البصقة التي جفتْ على وجه سلامة أكثر إيلاماً من شتم ولده الطاهر أحمد على لسان ذلك المتهور الذي تفوح رائحته خمراً.

كان صداها يحفره كمنجلٍ يحصدُ شراييه، و أوردته بلا رحمة.

ربتَ الأستاذ فضيل على كتف سلامة و قال له بعطف:

- تعالَ لأوصلك إلى بيتك يا عم سلامة، غداً سنقدّم دعوى قضائية ضد هذا المخنث اللعين...

فقاطعه سلامة برعب :

- لا لا أرجوك ، لا أريد أن أشتكي عليه.

- ولكن لماذا ؟ قال فضيل بدهشة.

ردّ سلامة بأسى بالغ :

- لا أريد أن أسبب لأولادي المزيد من الذلّ و الهوان، فمعركتنا مع هؤلاء الناس خاسرة يا أستاذ فضيل ، و لن يحاسبوا ابن أبي العلاء لأنّه شتم فقيراً مثلي، فكيف تستطيع قول الحق إن كانت المسامع ملطّخة بجير التزييف و الباطل ؟ أرجوك يا أستاذ لا أريد أن يعلم ابني ورد بما جرى الآن ، سأبتلع الإهانة من أجل أولادي، إن ما حصل لي

سـيجعل ورداً أكثـر حزنـاً، و أخـاف أن يتهـور و يقضي على مستقبله.

أيقـن الأسـتاذ فضـيل أنَّ سـلامة لا يريـد كشـف ما جرى لأحد و أنّه سيحتفظ بالكتمان.

الفصل الخامس

(زئير القلب)

ارأفْ بنا يا زمن لنجعلَ أرواحنا فتات طعامٍ

أو قطع سكر لكل عابر سبيل

و لنُجبرَ قلوبنا أن تُضيء ليلاً شتائياً

يلوذ قمره ليتدفأ بغيمةٍ شاردة

ارأفْ بشبابنا المنكفئ على نفسه

يتيماً خائراً بعد أن كفنته بكهولةٍ يرمقها

الموت من بعيد...

لـم تكـن هنـاك قـوة قـادرة أن تُخـرجَ سـلامة مـن مذلّتـه، فقـد انقلبـت أحوالـه كليّـاً، فغـدا أكبـر مـن عمـره عشـرين عامـاً، و التـزمَ صمتاً مرعباً.

انزوى عن أفراد أسرته نائياً يعتصره الألم.

إنَّ المـرء يشـيخُ عنـدما يسـتطعم مـذاق الـذلّ، و يصبح ملوثاً بأوجاع المهانة.

كـان وحيداً تحت وطـأة حملٍ ثقيل يحتـاجُ لأحدٍ يقاسمه إيّاه، فهو لـم يستطع إزالـة آثـار البصـقة الجافـة عـن وجهـه ، و صـدى شـتيمة ولـده أحمد من عتبات أذنيه التي تخترق دماغه.

كـان القلـق يسـتبدّ بزوجتـه نبيلـة ، فهـي تـراه يومـاً بعد يـوم يـذوب شـيئاً فشـيئاً، و يقتـرب مـن حتفه بدموعٍ يابسة وسط عينيه.

فقـدَ النطـق و الشـهية، و انطـوى قلـبُ الأسـرة على حزنٍ عميق لِما آلتْ إليه حالةُ سلامة.

حـاول ورد أن يفهـم سـبب حالتـه، لكنـه لـم يفلـح بمحاولتــه ، و اســتدعى لــه الطبيــب الــذي أكّــد لهـم أنّــه لا سـبب عضـوي لحالتـه، و أخبـرَ ورد بأنه قد وقع بين مخالب الاكتئاب النفسي.

مضـــى شـــهران و ســـلامة كخشـــبةٍ يابســـة ، لا شـــيء يتحـــرك فيـــه إلّا يـــده التـــي يرفعهـــا كـــل حـين، و يتحسـس مكـان البصـقة التـي لا تـزول و يرفعهـا ليمسـح دمعـةً تسـرقُ نفسـها مـن بـين جفنيه القريحين.

تلـك الدمعـة هـي جـرّاء جرحـه العميـق مـن شـتيمة أحمـد ، هـذا الجـرح الـذي لـم يلتـئم، و سـرعان مـا يعـاود نزيفـه كـأنَّ المبضـعَ لا يـزال في عمقه.

اعتكـفَ ورد فـي البيـت ملازمـاً أبيـه، حـائراً و خائفاً عليه.

و فـــي صـــباح يـــوم الجمعـــة فـــوجئ الجميـــع بســلامة يقـرأ سـورة ياسـين كمـا اعتـاد سـابقاً لكـن بصـوت خافـت، و دموعـه تسـيل بـبطء علـى تعرجـات وجهـه المُتعـب، و مـا إن انتهـى

مـن قـراءة السـورة حتـى اقتـرب مـن صـورة أحمد.

نظر إليها ملّياً و همس في سره :

-" سـامحني يـا بنـي لأنّـي لـم أسـتطع ردَّ اعتبـارك أنـا ضـعيف و جبـان، و مبصـوقٌ مـن فـم الـدهر كهـذه البصـقة اللعينـة التـي لا أزال أشـعرُ بحرقـةِ جمراتهـا علـى خـدي ، سـامح أباكَ يا أحمد.. سامح أباك... ".

و خرَّ صريعاً على الأرض.

ركـض ورد و نبيلـة ، و أمسـكوه لكـن سـلامة قد مات.

مـات سـلامة و قـد ابتلـع إهانتـه ، بعـد مكوثهـا فـي حلقـه لمـدة طويلـة ، و عنـدما نزلـت فـي أحشـائه فتكـت بـه علـى الفـور ، مـات بحسـرة ولـده أحمـد الـذي عجـز أن يـدافع عنـه أمـام ابـن أبي العلاء.

أقاموا العزاء في المنزل لمدة خمسة أيام، كان هناك شخص واحد بين الجموع يعرف سرَّ موت سلامة و هو الأستاذ فضيل الذي كان يبكي عليه و كأنّه أحد أقاربه ، يبكي ذلك الإنسان الفقير الذي عاش في هذه الحياة طيّباً و مسالماً و أميناً يُعارك عواصفَ البؤس ليربّي أولاده، وحده فضيل كان يعرف كم كان سلامة رجلاً نبيل الأخلاقِ يجوعُ ليُشبِعَ أسرته، يعطش ليرويهم، يبتلع الذلَّ ليعيشوا بكرامة.

تكفّل الأستاذ فضيل بمصاريف الأسرة الفقيرة رغم اعتراض ورد الذي أحسَّ بإهانة كبيرة، لكن فضيل أوضح له بأنَّ لأبيه سلامة مبلغ كبير في ذمته و يجب عليه إيفائه.

اقتنع ورد بعد عناء بادعاء فضيل، و شكره لوقوفه بجانبهم في محنتهم.

لقد شاءتْ الأقدار أن يتغير مصير ورد ، فهو لن يستطيع السفر بعد الآن فقد أصبح مسؤولاً عن أمه و أخته الصغيرة ميرا.

و مضتْ الشهور تباعاً ثقيلة الخطى ، أخذ ورد على عاتقه مسؤولية البيت ، و ساعده الأستاذ فضيل في الحصول على وظيفة عند أحد المحاميين في المحافظة براتبٍ لا بأس به.

و استطاعتْ نبيلة بمساعدة المدام فريال زوجة فضيل شراء ماكينة خياطة لتعمل في البيت و تساعد ورد في تلبية احتياجاتهم.

كانت لميس تتردد إليهم كل يوم لتطمئن عليهم ، فقد تأثرت تأثراً بالغاً بما أصاب عائلة حبيبها ورد.

و عاود ورد الذهاب إلى بيت العم أبو حسين في المساء لينهل من حب لميس التي لم تبرح خياله لحظةً واحدة ، و عساه يجد مهدئاً لآلامه ، لقد كان هواها علاجاً لمحنته.

و في صباح أحد الأيام جاءتْ ميرفت لزيارة لميس ، و قد فرحت بها لميس كما لو أنَّ قبساً من نور أضاء ظلمة وحدتها، فهي لا

تجد لها أنيساً تفتح له سراديب قلبها المقفلة إلّا ميرفت.

قضتْ الفتاتان وقتاً ممتعاً في الاستماع إلى الموسيقا، و تناول الغداء ، و تجاذب أطراف الحديث كانت الحصّة الأكبر في حديثهما عن ورد الذي يستحوذ على روح لميس و وجدانها.

لقد باركتْ ميرفت هذا الحب و تمنت لهم السعادة الأبدية.

كانت لميس تناجي طيف ورد بأعذب الكلمات ، و تمسك بيد ميرفت بسعادة عارمة لتقول :

- إنّه سعادتي و مبتغى آمالي ، إنّه النور لعينيّ فبدونه لا أُبصر ، و الخفقان لقلبي لولاه أنا جثة هامدة يا ميرفت.

كانت ميرفت تستمع إليها بابتسامتها الرقيقة، و شيئاً فشيئاً بدأت البسمة تتلاشى عن شفتيها و قالت:

- كم أنا سعيدة لسعادتكِ يا أختي، و لكن رغماً عني يختلجني الحزن كلما تذكرتُ ما ذاقه والده من ظلمٍ ، و ينتابني حقدٌ كبير على ذلك الحقير الذي تسبب بموته.

أصاب الذهول لميس مما تفوهتُ به صديقتها ميرفت و قالت بدهشةٍ اعتمرتْ تقاسيم وجهها :

- ماذا قلتِ يا ميرفت ؟ و من هو الذي تسبب بموت العم سلامة ؟

- هس اخفضي صوتك ، فأنا لا أريد أن يتطلعَ أحداً على ما سأقوله لكِ حتى والدكِ.

صمتت لميس و ما تزال بدهشةٍ كبيرة ، بينما تابعت ميرفت :

- اسمعي يا لميس إنّ أبي أخبرني بما لحق العم سلامة من ذلٍّ و هوان على يدِ فتى يدعى مناف ابن أبي العلاء الذي يمتلك نفوذاً كبيراً، حيث بصقَ في وجهه و أهانه و شتم ولده الشهيد أحمد ظلماً و عدواناً، و قد طلب

أبـي منـه أن يشـتكي عليـه لكنـه أبـى إفشـاء السـر لأحـدٍ خوفـاً علـى ولـده ورد مـن التهـور و ضـياع مسـتقبله ، لقـد رفـض أن يسـقي عائلتـه مزيداً من الذلّ، فماتَ بحسرةٍ و قهر.

كانـت لمـيس تُنصـتُ، و تكـتم شـهقةَ الصـدمة، و تضـع يـدها علـى فمهـا المفتـوح مـن هـول مـا سـمعت، و قـد اغرورقـت عيناهـا بالـدمع الحار.

تنهدت ميرفت بعمق و أعقبت:

- إنَّ روث الحيوانـات أشـدّ نظافـة مـن قلـوب بعض البشر.

أطلقـتْ لمـيس تنهيـدةً أعمـق مـن المعتـاد ، فقـد كانـت صـدمتها كبيـرة ، و لـم تكـن نتيجـة وقوفهـا علـى حقيقـة مـوت العـم سـلامة فحسـب بل لأنّها تعرف منافاً قبل هذا الوقت.

و أذهلهـا أن يكـون منـاف وراء مـوت والـد حبيبها ورد .

تتالت الأيام و الخوف يساورها ، كيف استطاع هذا الوغد الحقير المجيء إلى قريتهم !

إنّه ذات الشخص الذي تعرّض لها مرات عديدة أثناء انصرافها من الجامعة ، و حاول إرغامها على الصعود معه في السيارة، لكنها في كل مرّةٍ كان يعترضها توسعه شتائماً، و لم ترضخ يوماً لإرادته.

إنّه هو ذلك السافل الذي حاول جاهداً لفتَ نظرها، و قد أرسلَ إليها الكثير من الفتيات إلى الجامعة ليتوسلنَّ لها أن تعطيه فرصةً واحدة لكنها كانت ترفض بشدة لأنه يثير نفورها و إقيائها.

لقد أصبحتْ متيقنة أنه جاء إلى القرية بقصد رؤيتها.

و تراءى للميس حجم المأساة التي وقعت بسببها، و إن علم حبيبها ورد بالأمر كيف سيكون حاله ! ، و أيّة شكوك و ظنون ستدور في رأسه !

كانت أكثر شكوكها إخافةً تبدأ فور استحضار صورة ورد وهو متطلع على سبب موت أبيه بهذه الطريقة، و أنّ الذي تسبب بموته شاب عابث يهدف للحصول عليها.

مضت الأيام و القلق يستبدّ بها، ساهمةً.. واجمةً.. لا تدري ما الذي تفعله إزاء هذه المصيبة التي حلّتْ بها.

و استولى عليها التفكير بالانتقام من ذلك الحقير.

و قد لاحظ والدها و ورد تبدل أحوالها ، و ذبول نضرتها، و خفوت نور ابتسامتها، و أصاب ورد الغم و الهم و لم يعلم ما الذي أصاب حبيبته لميس.

بدأتْ لميس تفكرُ كيف ستنتقم من مناف لما فعله بوالد حبيبها، سوف تأخذ لسلامة حقه من ذلك الجبان دون أن يعلم ورد ، حتى لا يكون عرضةً للخطر و لكن كيف !

فهي تبقى طيلةَ الليل مستيقظة و عيناها مغمضة ، ساهدةً دون راحة.

و العم أبو حسين أشدّ الناس تأثراً بحالها ، و قد عزى حالتها إلى الوحدة التي تعيشها ، أو لابتعادها عن أمها.

و كان يقول لها :

- عصفورتي عليكِ أن تذهبي إلى والدتك بضعة أيام ألا تشتاقين لها؟

فتردّ و هي في عالم آخر :

- لا يا أبي لا ، فأنا إن غبتُ عنك أغدو كسمكة تحتضر و تنتفض موتاً لخروجها من الماء.

فيعانقها و دموعها تشقُّ طريقاً على وجهها الناعم الحريري.

لم يُسِرْ حال لميس أحد ، كانت تذهب إلى الجامعة و تعود ساهمةً واجمةً حزينة لا تعرف للراحة طعم.

و في أحد الأيام حيث اشتدَّ تهطال المطر في يومٍ شتويّ عاصف ، سارعت لتعبرَ الشارع على الجهة الأخرى لتستقل سيارة أجرة ، فإذا بها وجهاً لوجه أمام مناف الذي نزل من سيارته بسرعة و عيناه تلتهبان شوقاً لرؤيتها.

كان اختراع الحب في قلبٍ متصحّرٍ كقلب مناف أمراً مستحيلاً ، فهو المعتاد أن يحظَ بكل ما يريده دون جهد و عناء بفانوسٍ سحري يُسمى أبو العلاء.

قد يكون هذا ما زاد اصراره على ملاحقة لميس التي لم تعره أي اهتمام ، فمَنْ يجرؤ أن يرفضه وهو المستظلّ بسلطة والده ؟!

و أبو العلاء هو كالكثيرين ممن يمتلكون النفوذ و المال ، يبيعون و يشترون، و يشترون و يبيعون، فالأغنياء لا يتمسكون

بمعنويات الأشياء كالفقراء ، يبيعون كل شيء سياراتهم... بيوتهم و ضمائرهم.

أما الفقراء فيتشبثون بأشيائهم حتى و لو كانت تالفة إلى آخر رمق و يشمّون بها روائح ماضٍ يحبونه ، أو يرتسم بين ثناياها أطياف ثمينة.

كان أبو العلاء في كل مناسبة يرشُّ فضائله رشّاً على المسامع المنصتة له غصباً ، نافخاً أوداجه معجباً بنفسه غير آبهٍ لفؤاده الخالي و الخاوي من الفضائل.

إنَّ الذين يتكلمون عن مآثرهم أبعدُ الناس عن الأخلاق الرفيعة ، و تراهم داخل بيوتهم لا يُعتبرون إلّا كقوائم سريرٍ منخور أمام جبروت زوجاتهم.

فكان مناف و أخوته شهداء لأخطاء أبٍ يُكدّس النقود لتعيثَ فساداً في نفوس أفراد عائلته، و شهداء لأخطاء أمٍّ رأتْ أنّ واجبها كأمّ بتقديم الحنان انتهى بمجرد فطامهم عن ثدييها.

فلا ناصحَ ولا مؤدبَ يسقيهم كؤوس الفضيلة و يزرع فيهم بذور الخير و احترام مشاعر الآخرين.

فقد نشئوا نشأةَ الجهلِ، و لم يربؤوا بأنفسهم عن الرذائل، أو يقرئوا عواقب أعمالهم.

فإنْ فاحتْ إحدى فضائحهم التي لا تنتهي سارع أبو العلاء إلى لفلفتها ببعضٍ من نقوده أو باتصالٍ هاتفي مع فاسدٍ مثله ، و ليذهبَ المظلوم و العدل إلى الجحيم.

لم يعشْ أبو العلاء إلّا ليكتنزَ الأموال من صفقات غامضة و ليبني شرور و غرائز أبنائه الذين يرون الشرفَ بما تحويه الجيوب من مال، و أنّ الرجولة في إفراغِ طلقة المسدس برأس أيّ إنسان دون أن ينكمشوا خوفاً أو يهتزّ لهم وجدان، و أنّ الحب هو سرير و جسد و أضواء حمراء ينتهي تأثيره مع انتهاء اللقاء.

الفصل السادس

(أشواك الورد)

كم ستبقى يا دهر متمدداً

تتلصص حاسرَ الرأسِ

مكتنزاً بالحزنِ

و تمنعُ النورَ أن يدلفَ

من فراغات الأبواب

و شقوق النوافذ الموصدة !

وقف مناف يحدجها بنظراتهِ الملتهبة ، و يجسّها بعينيه طويلاً، أما هي فقد أشاحتْ بوجهها عنه كأنه لا شيء.

لم يستطع مضغَ هذه الإهانة ، فأصبح غضبه عارماً ، و صرخ بأعلى صوته:

- أيتها المتعالية المتعجرفة ، مَنً أنت حتى ترفضي منافاً، و تستكبري عليه؟

نظرت إليه لميس، و حبّات المطر تسيل على وجهها الجميل ، و قد فاجأتها ردة فعله، فقالت ونظرة السخرية اعتلت وجهها:

- أنت تُثير قرفي و اشمئزازي ، فلستُ أراكَ مختلفاً عن أيّ حيوان يقضي حاجته في العراء.

بدا تنفسه غير منتظمٍ من شدّة الغضب ، و لم يبارحه الغيظ.

فتابعت لميس متجاهلة غضبه:

- إنْ كنتُ متعاليةً و متعجرفةً فلماذا تلحق بي و تتعقبني ككلبٍ جائع ؟ فأنا وردةٌ لمن يستحقني ، و شوكةٌ تمزّقُ لحم من لا يستحقني ، فاغربْ عن وجهي أيها التافه.

لأول مرة يعتريه شعور بأنه مبصوق ، و منبوذ ، فضربَ بقبضته نافذة سيارته بغضبٍ عارمٍ ، و بدأ يتمتم بشتائمٍ غير مفهومة.

ركبَ سيارته الفخمة وهو يرميها بنظرات تتطاير شرراً و ذهب.

أحسّ منافٍ بأنّ رمحاً يخترقه ، و يفتت أحشائه بقسوة ، و يهزّها بقشعريرة تكاد تفقده صوابه ، لم يكن في مزبلةِ رأسه ذكرى واحدة لمخلوق استطاع تحديه و شتمه كما فعلت لميس ، فقد كان مستعداً لدفع أموالاً باهظة لقاء أن يجعلها ذليلة أمامه، و كسيرة الخاطر.

لوهلةٍ حاول أن يقذفَ بها من رأسه ، و يمحيها من ذاكرته ، لكنها كانت تعاود

الظهـور بشـموخها متحولـةً إلـى شـبحٍ يؤرقـه لقد باتت جرحاً في صميمه لا يندمل.

جـــرحٌ يجعلـــه متعثـــراً بضـــباب القلـــق و الهواجس و الغضب.

إلّا أنّ لمـيس شـعرتْ بنفحـاتٍ مـن الارتيـاح تغمـرُ سـماء روحهـا فهـي لـن تنـال السـعادة كاملـة قبـل أن تُحطّـم أنـف ذلـك المغـرور العابث.

وفـي مسـاء تلـك الليلـة جـاء ورد ، و قـد اسـتقبلته لمـيس بفـرحٍ يشـعّ مـن قسـماتها، لـم يسـتطع تفسـير هـذا الفـرح المباغـت بعـد أن كـان قلقـاً مـن تبـدل أحوالهـا فـي الفتـرة الماضـية إلّا أنه كان سعيداً بفرحها الطفولي.

أخبـر ورد لمـيس و والـدها باعتزامـه التعاقـد مـع الشـرطة ، فهـزَّ العـم رأسـه و اكتسـت ملامحه بوادر حزنٍ خفي و قال:

- انسَ الأمر يا بني إنّك تحتاج لدعمٍ كبير من أصحاب النفوذ، و مثلنا لا يمتلك إلّا قلّة الحيلة.

ردّ ورد وهو ساهم و مقتنع بما قاله العم:

- سأحاول فلا ضير من المحاولة.

شربوا الشاي الذي أعدّته لميس، و أخذ ورد يتحيّن الفرصة ليتكلم مع العم بشأن ارتباطه بلميس، و تهامس معها بما ينتوي ، فابتسمتْ و ارتأتْ أن تدخل غرفتها ريثما ينتهي من حديثه مع والدها.

في البدء تدافعتْ الدماء إلى وجه ورد ، و بدأ يفرك ذقنه بأطراف أصابعه، و قال بعد جهد:

- عمي لقد جئت اليوم لأحادثك بشأنٍ خاص، و أرجو أن يكون في ردّك ما يشرحُ صدري و يثلجه و يدبّ بوارق الأمل في أوصالي.

ابتسم العم و قد تكهّن في قرارة نفسه إلى ما يرمي إليه ورد بتلك المقدمة و قال:

- قلْ ما عندك فلكَ من المحبة كما للميس.

و هنا استعاد ورد رباطة جأشه و تابع:

- أنا أحبُّ لميس يا عمي، أحبّها حبّاً يمتلكُ أنفاسي و أرجو أن ننال بركةَ موافقتك لحبنا، و لارتباطنا كزوجين في المستقبل القريب.

فجلجلَ صوت العم أبو حسين ضاحكاً:

- أواه يا عصفورتي المختبئة تعالي لأرى تورد الورد على خديّكِ.. تعالي

فظهرت لميس التي كانت وراء الباب تستمع إلى حديثهما و قد كادتْ تتعثرُ بمشيتها، و اقتربت من والدها الذي وقف فاتحاً ذراعيه ليعانقها ، و يغمرها بوابل القبلات، و دموع الفرح تملأ عينيه و تابع:

- إنّ طلبَكَ يا بني يحتاج لقبول عصفورتي الرقيقة ، فإن وافقتْ فعلى بركة الله.

أخذت لميس تستجمع قواها ، و تنظّم اضطراب أنفاسها و قالت:

- نعم يا أبي أنا أريد ورداً، فلستُ أطمحُ من دنياي إلّا أن أكون زوجته و رفيقة عمره.

و توجهتْ إلى ورد قائلة :

- ورد أنا و أنت سنكون زوجين بإذن الله، و لكن يجب أولاً أن أُنهي دراستي، و ستكون الخطوبة في يوم تخرجي إن شئت.

فأومأ ورد برأسه موافقاً و قال :

- أنا أوافقكِ الرأي فلم يبقَ إلّا ستة أشهر، و بعدها سنُعلن خطوبتنا.

لقد أحس ورد بأنّه امتلك الكون بأسره، لقد نال من الحياة حبيبةً قضى ليالٍ يحلمُ بطيفها، و تراءى الآن الحلم واقعاً.

* * *

فـي تلـك الفتـرة نـأى منـاف عـن المـراقص و الملاهـي الليليـة ، فقـد كـان قلبـه يزمجـر مـن الحـزن الـذي لـم يفارقـه منـذ ذلـك اليـوم الـذي لطخـت بـه لمـيس كرامتـه ، لقـد كـان وجهـه يتّسـمُ بضـجرٍ مميـت لمـا أصـابه مـن انحطـاط فـي معنوياتـه ، و بـدون وعـي تـراه يسـتقلُّ سـيارته و ينتظـر سـاعات و سـاعات عنـد الرصيف المقابل لباب الجامعة.

و فـي كـل حـين يمـدُّ نظـرات غائمـة إلـى السـماء، ليسـتجدي بعـض الأمـلِ غيـر مبـالٍ بالصـخب الـذي يتعـالى فـي أرجـاء نفسـه يلومـه و يقرّعـه ، لمـاذا يُحـرق روحـه و يجعلهـا مسحوقة تحت أقدام تلك الفتاة ! .

و يبقـى ماكثـاً حتـى تخـرج لمـيس بكـل شـموخها الـذي يؤرقـه ، و جمالهـا العفيـف و تتـوارى فـي

زحام الناس ، فيعود أدراجه إلى البيت ملوثاً بالآلام.

مضتْ أيام و ليالي و حالته تزداد سوءاً ، و كانت لميس تعلم بحالته ، فهي تراه كل يوم في سيارته منتظراً واجماً و الحزن يفتك به، و لا تنفك لميس التنفس بعمقٍ فهي سعيدة جداً بعذاباته و لن تكتفي بهذا المقدار.

لم يكن في توالي الأيام إلّا مضاعفة السأم و الآلام في نفس مناف لكنه لم يرضخ ، كان يقاوم قشعريرة الإهانة التي تجتاحه فغدا غير قادر تصوّر الدنيا بدونها.

و في أحد أيام الانتظار المرير و بينما هو شادر رآها تعبر الشارع و تتجه نحوه بخطوات ثابتة.

جحظت عيناه و أخذ يفركُ جفنيه بأصابعه ليتأكدَ بأنه لا يتوهم طيفها كما اعتاد.

لا إنّه ليس واهماً ، إنّها لميس.

لكنــه وجـف مــن مجيئهــا فقــد توقــع إعصــاراً ثانياً سيتلف بقاياه .

نـزل مـن السـيارة ووقـف ينظـر إليهـا مرتجفـاً و قد ألجم الصمتُ لسانه و الصدمة كيانه.

وقفـت قبالتـه و قـد أزاحـتْ خصـلة شـعر متدليـة علــى وجههــا و رســمت نصــفَ ابتســامة علــى شفتيها الورديتين و همست:

- كيف حالك يا مناف؟.

و أطرقت أرضاً .

حملقَ بها كالأبله و ردَّ متلعثماً :

- حــالي... أنــا.. نعـم... أنــا بخيــر.. بــألف خير الآن.

اتسـعتْ نصـف ابتسـامتها لتغـدو ابتسـامة كاملـة و أردفت :

- هل لديك وقت لنشربَ القهوة معاً؟

أحسّ و كأنّ الأرض تحته تميد و أنّ زلزالاً سيبتلعه فأجاب بسرعة خوفاً من أن تُغيّر قرارها :

- نعم بكل سرور.

ووثب ليفتح لها باب السيارة ، لكنها سارعت بالقول :

- لا لا أريد الصعود في السيارة ، فلنمشِ إلى أقرب حديقة من هنا.

- كما تشائين.

و بدون اعتراض أقفلَ أبواب سيارته ، و قال و ملامح الارتباك تعلوه:

- تفضلي أنسة لميس.

مشت بجانبه بشموخها المعتاد ، بينما هو لم يكن قادراً طردَ ظلِّ الخوف المتأبط ظلّه على الدوام.

جلسا على مقعدٍ خشبي تحت شجرة كينا تنشر ظلالها بعطاء و سخاء ، و مضت دقائق يلفها مارد الصمت.

خالجه شعورٌ بأنه حقق انتصاراً عظيماً ، لكنه في نفس الوقت لم ينكر أبداً أنه متورط بغرامها حتى آخر ذرة من جسده و روحه.

كانت لميس تتحدث بمنتهى الراحة ، و تفتح الحديث تلو الآخر، و هو يتأملها بينما وجهها يتوهج مرحاً و جمالاً و قلبه يتأجج شوقاً ملتهباً، كان يُجبر نفسه التكلم باتزان خوفاً من أي كلمة تجعلها تنفر منه و تبتعد عنه.

و بعد مضي ساعة و نصف ودّعته لميس على أمل اللقاء في يوم آخر.

* * *

دخل مناف بيته وهو يكاد يطير فرحاً، و ملأ أرجاء البيت بالموسيقا الصاخبة ، و بدا يثبُ هاتفاً بأعلى صوته بكلمات الأغنية،

و يضـرب الأرض بقدميـه منتفضـاً كعصـفور، يتوقف هنيهة ، و ينفجر راقصاً من جديد.

لـم يكـن شـيئاً غريبـاً علـى أفـراد أسـرته ، فحيـاتهم كلهـا صـخب و جلبـة و لا أحـد يـدير بـالاً لمـا يـدور فـي نفـس الآخـر مـن أفـراح أو مواجع.

فـالترابط العـائلي و الألفـة و الحنـان ودّعـوا العائلـة منـذ ولـوج الأمـوال إلـى عتبـات قصورهم.

مضـت الأيـام و تتالـت لقـاءات لمـيس و منـاف فـي تلـك الحديقـة كـان حبّـه لهـا يـزداد تأججـاً و توهجاً في نفسه كل يوم.

فهـي مختلفـة عنـه و عـن وسـطه المنحـرف و عـن كـل الفتيـات اللـواتي عـرفهن ، لـديها أشـياء لا توجد بغيرها.

ذات يـوم أحضـر لهـا علبـة مخمليـة و قـدّمها لها بسعادة كبيرة.

نظرت إليها بتهكم و سألته : ما هذه ؟

فقال:

- لقد اشتريت هدية لأجمل أنثى أبدعها الخالق.

طلبت منه أن يفتحها ، فلمع بداخلها خاتم ذهبي باهظ الثمن.

تأملته لدقائق، و سرحت بعينيها بعيداً.

فقال بلهفةٍ :

- ألم يعجبك ؟ إذن نذهبَ معاً و نشتري ما يعجبك.

لم تجبه ، فازدادت حيرته و أردف قائلاً:

- ما بالك يا لميس، و بمَ أنت شاردة ؟

قالت له بكل هدوء متسائلة :

- كم عمراً يقضي الفقير ليستطيع شراء مثل هذا الخاتم ؟

فردّ بسرعة ناسياً اتزانه المزيف ،و قد فاجأه كلامها:

- ما لنا و الفقراء الآن يا لميس ؟

فقالت بابتسامة حزن :

- معك حق، و متى كان للفقراء حيّز بتفكيرك يا مناف!

إنّ تأوهَ بائسٍ فقير يئنُ وجعاً من رزايا الحياة ليس له صدى لديكم كصدى ضحكةِ عاهرةٍ يفتقُ صمتَ الليل.

أتعلم يا مناف كم من يتيم حُرمَ من كلمة أبي في هذه الحرب، و حُرمَ الرعاية و الاهتمام ؟

أتعلم كم أسرة تنامُ و مغص الجوع يفتكُ أحشاءها ؟ بالطبع لا تعلم، إنكم معشر

الأغنيـــاء لا تســـمعون إلّا رنـــين النقـــود ، و لا تشـــمّون إلّا روائـــح الشـــواء ، بينمـــا يرتـــع الفقـراء فـي مضـاجعهم يحلمـون بسـدّ جـوعهم و جوع أطفالهم.

خـذْ خاتمـك ، و تبـرّع بـه لمـن هـو بحاجـة لقمـةٍ تقيه الموت جوعاً ، فأنا لستُ بحاجته.

قـال منـاف و قـد حفـر كلامهـا فـي أعماقـه أثـراً كبيراً:

- معـك حـق يـا لمـيس نحـن طبقـة لا تُجيـد إلّا القسوة.

لقد بـات منـاف يخـاف مـن عبـوس لمـيس حتـى و لـو كـان عبوسـاً مـن تسـلل خيـوط الشـمس إلـى عينيها الجميلتين فتجهُمها يُثير رعبه.

لقد جعلته لميس شخصاً آخراً.

إنّـه الحـب الـذي يصـنع بالإنسـان مـا يعجـز الكـون بأسـره أن يصـنعه ، فهـو مدرسـة يغـذّي بنا كل الأخلاق الرفيعة و الوجدان الحي.

ذهـب منـاف فـي اليـوم الثـاني و بـاع الخـاتم الثمـين و كـل الحلـيّ الذهبيـة التـي كـان يتـزين بهـا ، و أخـذ مبلغـاً كبيـراً و شـرع يفـتش عـن الأسر الفقيرة و يغدق عليهم بالمال.

الفصل السابع

(مصرع الهوى)

لا تسلني عن حبك

فديار حبك قد نزحتْ

مضغتها الريح

و لم يبقَ على الرمال

إلّا رسمي العليل

و طعنة عميقة في عرين قلبي

لا تسلني لم و كيف

فغداً يكون للجرح تاريخٌ كأية ملحمة

و أية واقعةٍ

و سوف تغني لك قطرات دمعٍ مواويل البطولة السالفة..

استمرَ قلب مناف يضجّ بحبها ، فهو يمتلئ بهجةً لمجرد النظر إليها ، و لا يعود راغباً في شيء آخر على الإطلاق.

كانت لميس بوصلته إلى الخير و الإحسان، و ما إن يهفو هفوةً صغيرة حتى تردد بتقطيبةٍ من حاجبيها :

- صلِّ للرب أن يهبكَ شيئاً من العقل.

مَنْ تلك الفتاة و أيّ سرّ عظيم فيها التي أنضجته في شهور قليلة و قد مضى ثلاثون عاماً من عمره خامداً عن كل شيء إلّا الملذّات و الشهوات ، متمرغاً بوحول الضياع !

شغفها الخلقي للخير و المحبة أوقدَ في مغاور نفسه شموعاً تُضيء دروباً لم يسلكها أبداً.

و بينما كانا جالسين تحت شجرة الكينا قالت له فجأة:

- مناف أريد منك شيئاً.

و صمتت مطرقةً ترنو إلى وريقات ترامتْ تحت أقدامها ، فتعالى صوت مناف ضاحكاً:

- قولي و اطلبي ما تشائين ، فأنت سلطانة على العرش و ما أنا سوى مارد في فانوس عمركِ خُلق ليلبي أوامرك أيتها الملكة.

أطلقت زفرة طويلة و قالت:

- هناك شاب من أقاربي تخرج من كلية الحقوق، و يعمل حالياً محامياً في مكتب أحد المحاميين هنا في اللاذقية ، و إنه يرغب في التعاقد مع الشرطة و قدّم أوراقه ، لكنه يحتاج للدعم ، و إني أرى والدك قادراً على دعمه لِما له من نفوذ.

و هنا شدَّ مناف كتفيه بشيء من الخيلاء لاعتراف لميس بأن أباه ذو شأن، و طلب منها أن تدوّن على قصاصة ورق معلومات وافية عن الشاب ووعدها خيراً.

غمرهـــا الارتيـــاح ، و ابتســـمت لـــه ابتســـامة شكر تساوي لديه كل ما يملكه أباه و أكثر.

و بعد أيـامٍ قليلـة كـان لهـا مـا تمنـت فقد تـمَّ قبـول ورد في الشرطة.

لـم يعـرف ورد كيـف تخلـى القـدر عـن صـفعه لـه، و التكشـير عـن أنيابـه فـي وجـوههم ، لقـد نال ما كان يحلم به.

إنَّ هــذا المركــز الجديــد ســيغيّر أحوالــه ، و ينفض غبار الفقر عنه و عن أسرته.

ذلك القلبُ يزأر ، و يلهث ظامئاً

يشتهي أن يقتلع عيون زمنٍ

يرنو إلى ربيعنا بشغف....

و لـم تكتـفِ لمـيس بهـذا الطلـب ، فبعـد فتـرة وجيـزة شـجّعتْ ميـرا علـى تقـديم طلـبِ وظيفـةٍ لشـركة الميـاه، و طلبـتْ دعمهـا لتنـال

الوظيفة المرجوّة بعد حصولها على الثانوية العامة.

لقد كانت رغبات لميس تُلبى بأسرع وقت و مناف يزداد ولعاً و شغفاً بها آملاً من الحياة أن يدوم رضاها، و ألّا يُحرم من عذوبة ابتسامتها.

و أكثر ما كان يجذبه لها عفتها ، و شموخها المصاغان لها وحدها ، فهي لم تطلب لنفسها شيء، و كل طلباتها لخدمة الآخرين ممن طحنتهم رحى الدهور، و علكهم الفقر بأنيابه.

تبدّلتْ أحوال ورد و عائلته بفترة غير مديدة، و قد بدأ يفكر بهدم بيتهم الذي عاشوا فيه بلا أعمدة لزمن طويل، و بناء منزلٍ عوضاً عنه.

عرض عليه العم أبو حسين المكوث في بيته مع أمه و أخته ريثما ينتهي من بناء المنزل.

و بعد أيام جاؤوا إلى بيت العم أبو حسين، فكان ورد ينام في غرفة العم ، بينما نبيلة و ميرا مع لميس في غرفتها.

دام مكوثهم قرابة شهرين و نصف ، و كم أسعد لميس نزولهم في دارها ، فهي تستيقظ لترى وجه ورد قبل أن ترى نور الصباح ، و تكون ابتسامته آخر ما تقع عليه عيناها قبل أن تغفو.

لكن غيمةً داكنةً من القلقِ بدأت تزحف في سماء روح ورد ، فقد لاحظ أن هاتف لميس ملازمٌ لجيب بنطالها كل الوقت ، و تبدو مرتبكة إن غفلتْ عنه ، و أودعته في مكان بعيد عنها.

كان ورد من الفطنة أنّه يرى أدقّ التفاصيل و خصوصاً بأقرب الناس إليه، و قد كتم في نفسه هذا القلق.

وقرر أن يكتشف غموض تصرفاتها قبل انتهاء المنزل ، إنه لن يستطيع الاطلاع على ما تخفيه إلّا وهو في منزلها، لكن كيف ؟

إلـى أن جـاء اليـوم الـذي يسـبق رجـوع ورد و عائلتــه إلــى منــزلهم الجديــد الــذي تــمَّ تشــييده على أكمل وجه.

اجتمعـوا مسـاءً يتسـامرون ، و يشـربون الشـاي و العــم أبــو حســين يُضــفي جــواً مــن الفــرح بأحاديثه المتنوعة و الشيّقة.

انتبــهَ ورد بــأنّ لمــيس تتحســس جيــب بنطالهــا بارتبـاك و تنسـلُّ إلـى غرفتهـا، هنـا راوده القلـق و الشـك مجـدداً ، فارتعـدت فرائصــه ، و احـتجَّ بأنّه سيدخل إلى الحمام.

و فــي الممــر المــؤدي إلــى الحمــام وقــف قــرب بــاب غرفتهــا منصــتاً بخــوف يقطــع أنفاســه ، فسمع لميس تهمس من الداخل:

" كـلا لا أسـتطيع رؤيتـك لأننـي لـن أذهـب إلـى الجامعة "

توقفت قليلاً عن الكلام و عادت لتقول:

" منـــاف لا تعـــاود الاتصـــال فأنـــا أخمـــدتُ صوت رنين الهاتف"

و توقفت مجدداً عن الكلام لتعاود القول:

" أراكَ الأحـد بعـد انصـرافي مـن الجامعـة فـي مكاننا المعتاد.. إلى اللقاء".

سـمع ورد صـوت خطواتهـا تقتـرب مـن البـاب فسـارع إلـى الصـالة حيـث لا يـزال الجميـع مجتمعـين، لكنـه امتقـعَ بحمـرة دبغـت بشـرته ، و اعتصم بالصمت الذي كاد يفتك بجوارحه.

اسـتولت عليـه مشـاعر كثيـرة معجونـة بـالحزن و الغضب و الحيرة.

كيـف سـيحتمل هـذه الصـدمة التـي أطاحـتْ بأحلامه !

أتكـون لمـيس التـي امتلكـت قلبـه و كيانـه و أحييتْ رماده خائنة !

دخلتْ لميس بفرحها الطفولي المعتاد لكن ورداً الذي فقدَ في لحظةٍ آثار الشباب ، و خفتَ نور الحياة في عينيه قد أعماه الحزن وراحتْ شفتاه ترتجفان و تبعثان زفيراً ملتهباً.

احتار الجميع و أصابهم الذهول من حالته المفاجئة ، فهو جامدٌ لا يقوى على الكلام ، أو تحريك نظره باتجاه أحد.

هلعت لميس و اقتربت منه تهمس:

- حبيبي ما بك ؟

ما الذي أصابك ؟ هل أنت بخير؟

لم يجبها أو يسمعها.

صرختْ نبيلة بذعر:

- ورد يا عمري ما الذي دهاك ؟

فاكتفى بالقول ذاهلاً:

- أنـا بخيـر لا داعـي للقلـق ، أحتـاج للراحـة فقط.

و تـركهم متخبطـين بوحـول دهشـتهم ، و حيـرتهم ، و دخـل إلـى غرفـة العـم أبـو حسـين متـذرعاً بالنعـاس ، لكنـه لـم يـذق طعـم النـوم و عواصـف الظنـون الموجعـة تجتـاح نفسـه ، بعـد أن رأى صروح قلبه تتهاوى و تترمد.

فـي صـباح اليـوم الثـاني أخـذ ورد أمـه و أختـه، و شـكر العـم أبـو حسـين بكلمـات مقتضـبة و مختصـرة ، و هـو يتجاهـل حضـور لمـيس ووقوفها حيرى دامعة بجانبه.

لقـد كـان المنـزل فسـيحاً و جمـيلاً ، فقـد جهـزه ورد بأثـاث جديـد ، ممـا جعـل نبيلـة تـدمع فرحـاً لأول مـرة لأنهـا مـا كانـت لـتحلم يومـاً أن تسـكن بمثـل هـذا البيـت ، و أحسـت بأنهـا خُلقـت مـن جديد.

كانـت تـتفحص الغـرف بدقـة و تهمـس بكلمـات يتخللها شعور بالحسرة:

" أيـن أنـت يـا سـلامة ، كـم كنـت سـتفرح لـو رأيـت هـذا المنـزل، وا حسـرتي عليـك يـا أحمـد لـن يكتمـل عنـدي فـرح و أنـت فـي مجاهـل الغياب"

***

مزقـت الحيـرة لمـيس، و قـد اسـتعبدها الحـزن العميـق و الهـم ، فـورد لـم يكلمهـا و لـم تـر وجهـه بعـد أن غـادر مـع والدتـه و أختـه منـذ ثلاث أيام، تركها فريسة للكآبة الخرساء.

لا تـدري أي مصـيبة حلّـتْ عليـه ، و وقعـت في قيود الهواجس السوداء.

لبسـت ثيابهـا علـى عجـل ، و قـد مـلأ الشـحوب وجههـا لأن النـوم لـم يعـرف سـبيله إليهـا ، و ذهبت إلى الجامعة.

لـم يكـن لهـا شـهية للحيـاة أو الكـلام ، أسـيرة الأفكـار المتدافعـة علـى رأسـها كوابـل الرصاص الذي لا يرحم.

و بعد انصرافها مشتْ إلى الحديقة بخطوات واهية ، و رأت منافاً منتظراً كعادته على المقعد الخشبي تحت شجرة الكينا.

حييته بانحناءة صغيرة من رأسها دون ابتسامة تُثلج نيران صدره المتأجج شوقاً لها.

كان الحزن يزيدها جمالاً، و لا يجعلها تتنازل عن شموخها وسط الانهيارات.

لم تنتبه لورد الذي كان يتعقبها خفيةً ، و وقف مختبئاً وراء شجرة على مقربة منهما.

و مناف مسترسل بسرد الأقاصيص عمّا حققه في الأيام الماضية من انجازات و ما بذله من جهود فقد سخّر بعضاً من الشبان و الشابات لتوزيع المؤون و الحاجيات الأساسية على بعض الأسر المحتاجة.

وكانت تومئ برأسها علامة الرضا والاستحسان عن انجازاته ، و ترد على تساؤلاته بصوت مفعم بالحزن.

و فيما ورد مختبئ وراء الشجرة يراقب حبيبته و قد أشعل القهر أوصاله تمنى و اشتهى أن يدعو أي عابر سبيل ليبكي معه.

يبكي نهاية البراءة لقديسة تعبّد في معابد الحب لأجلها، يبكي احتراق قلبه العذري الذي ما انتفض حبّاً و حياةً إلّا منذ بزوغ فجرها.

يبكي مصرع هوى كان يخاله أزلياً .. أبدياً.

و عاد أدراجه هائماً كسير القلب و الخاطر يسير بين الناس على غير هدى محتضراً.

و قادته قدماه إلى البحر عسى أن يتجاوز شيئاً من احتضاره القاسي بمرأى الموج.

جلس على الشط يمصّ سجائره مصاً، و قد جهز أحلامه ليضعها في سلالٍ و يقذفها عرض البحر، لكن تجشؤات البحر كانت تُعيد إلى اليابسة سوس القهر الذي ينخر عظامه، و أعمدة روحه.

مضـــتْ أيـــام و ورد موغـــلٌ بهجـــر لمـــيس، تتصـــل بـــه فـــلا يجيبهـــا ، تـــذهب إلـــى بيـــتهم فيقولون لها أنه خرج فلا تجده.

لـــم تعـــد لمـــيس تحتمـــل فثـــارتْ ثائرتهـــا ، و قـــررت أن تضـــع حـــدّاً لآلامهـــا ، و أن تـــذهب إليه مساءً.

طرقـت البـاب ففتحـت نبيلـة و هـي تتثـاءب ، و مـا إن رأتهـا حتـى احتضـنتها بحنـان و دعتهـا إلى الدخول.

- خالتي أين ورد ؟ و هل هو بخير؟

زفـرتْ نبيلـة زفـرةَ هـمٍّ كبيـر و قالـت بصـوت ترافقه تنهيدة عميقة:

- لا أعلـم مـا الـذي دهـا ورد يـا لمـيس ، إنـه مـلازم لغرفتـه طـوال الوقـت ، فمـا إن يـأتي مـن وظيفتـه حتـى يـدخل غرفتـه ولا يبرحهـا حتـى الصـــباح ، إنـــه يمتنـــع عـــن التحـــدث إلينـــا، أرجـوك يـا لمـيس ادخلـي إليـه فقـد يفشـي لـكِ بمـا يعذبه.

أومـأتْ لمـيس برأسـها ، و وقفـت وراء بـاب غرفتـه لتطرقـه طرقـاً خفيفـاً، لكنهـا لـم تلـقَ جوابـاً، أعـادت الطـرق بقـوة دون جـدوى لـم تطق صبراً ففتحت الباب.

كـان النـور خافتـاً و ورد مسـتلقياً علـى سـريره ينفث سيجارته شارداً.

اقتربـت منـه لكنـه لـم يلتفت إليهـا، فجلسـتْ علـى كرسـي بجانـب سـريره، و حاولـت أن تمسـك يده لكنه سارع بإبعادها.

- حبيبـي ورد أنـا لمـيس حبيبتـك ألا تريـد النظـر إلـيّ؟ مـا بـك يـا حبيبـي أتـراك سـلوت حبي و آثرتَ قتلي و فنائي !.

و هنـا انـتفض كـالمجنون ، و حـدقَ بهـا بعينـين جاحظتين يمتلآن غيظاً، و صرخ:

- اغربـي عـن وجهـي أنـت لا تسـتحقين أن تكـوني زوجتـي لأنـك آثمـة ، أنـا و أنـت لـن نكون زوجين أبداً أفهمتي ؟

كانت كلماته كوقع الموت عليها و قالت و قد انصعقت و كادت الصدمة تفتكُ بها:

- ماذا ! أنا آثمة يا ورد كيف تقول هذا ؟ عشتْ طاهرة و عفيفة النفس و لم أزلْ و سأبقى كذلك أبدَ الدهر.

عاود ورد صراخه :

- نعم إنك آثمة و خائنة ، الله جعلني أُبصر حقيقتك قبل أن أتورط بالزواج منك اذهبي إلى عشيقك المنتظر في الحديقة و اطلبي منه الزواج ، أم أنّك لا تكتفي برجلٍ واحد ؟!

كان يتكلم بمرارة و الدموع في عينيه تفيض.

و هنا انقشعتْ سحب حيرتها..

إنّ ورداً متطلعٌ على علاقتها بمناف، و لكن كيف ! و من متى !

أرادت أن تتكلم و تخبره كل شيء لكنها تراجعت و لم تفعل فقد استولى عليها الخوف مجدداً لن تفتحَ جروحاً قديمة و تقذف به في مجاهل الانتقام الوخيمة.

فوران دمه سيجعله متهوراً قد يقتل منافاً و يقضي عمره بين قضبان السجون المظلمة، و قد يقتله منافٌ و تموت قهراً عليه.

إنه يشقّ طريقاً لمستقبلٍ مشرقٍ، لا لن تكون أنانية و تدفعه إلى تصرف مجنون و أحمق لتبرر طهارتها و تحافظ على حبها ، فعليها إما أن تُضحي به أو تخسره.

عاود ورد كلامه بمرارة تمتزج بالقسوة:

- ليس لديك حجة تبررين فيها خيانتك أليس كذلك أيتها الطاهرة العفيفة؟

كم كنت مغفلاً عندما رسمتك ملاكاً ! ارحلي هيا فلن أموت حزناً عليكِ.. ارحلي من حاضري من غدي .. من قلبي الذي أدمن

النبض لكِ ، فالله كفيل بشفائي منك و من إدماني لهواكِ و من غدرك.

و قفز من سريره يدفعها بكلتا يديه من غرفته.

و هنا صرخت نبيلة بذعرٍ:

- ورد أيها الأحمق المجنون اتركها.

و عانقت لميس التي كان الدمع متحجراً وسط عينيها.

أفلتت لميس من بين أحضانها و غادرت بصمتٍ و بغصةٍ تُغلق في حنجرتها منافذ الحياة.

تركَ ورد أمه و أخته بظلامِ ذهول كبير، و لم يخبرهم شيئاً عن سبب تمرده و حزنه ، و طردِ لميس من بين قضبان صدره شرّ طردة فبرغم كل حقده العظيم عليها فهو يأبى أن يلطخَ اسمها بحرف واحد، و رغم قساوته عليها كان دمعها يحرقه .

مضت الأيام كأنها دهور لا نهاية لها و لميس تحت وطأة الانهيار لا تبارح سريرها و ترفض بشدة الخوض بأي نقاش.

كان العم أبو حسين يبكي عليها دموعاً غزيرة، فهي الرجاء الوحيد و السعادة التي يعيش لأجلها.

و لم يستطع معرفة سبب هجر ورد لها رغم توسلاته لها و لورد التي كانت عقيمة فقد احتفظ كلاهما بالكتمان.

كان مناف يتصل بها يوميا و يبعث لها الرسائل دون جدوى فقد اعتزلت الدنيا بأسرها بعد ذلك اليوم.

و عندما ضاق ذرعاً من تجاهلها له و فقدَ صبره ، أرسل لها برسالةٍ ينبؤها بأنه سيوافيها إلى منزلها إن لم تجبه فاتصلتْ به و حذرته من المجيء ، و قالت له بأنها أسيرة حمى شديدة أجبرتها ملازمة الفراش، فقال لها:

- أرجوك يا لميس اسمحي لي بالاطمئنان عليكِ ، سوف أحضر لك أمهر الأطباء لتبرأي سريعاً ، فأنا خائف و يمتلكني الذعر و الهلع، لقد بتُّ لا أرتجي العيش إلّا لأجلك أرجوكِ أرجوكِ.

فقاطعته لميس محذرة:

- مناف إن لم تكف عن هذا الكلام فلن تراني ثانيةً ، سوف أبتعد عنك إلى غير عودة.

دبّ الخوف في أوصاله من تهديدها و قال:

- كما تشائين ، فأنا لن أكرر ما قلته ، و لكن أتوسل إليك أن تسمحي لي بالاطمئنان عليكِ عبر الهاتف، و أن تجيبي إذا ما اتصلتُ بك.

- كما تريد.

و أغلقت الهاتف و قد هدّها الإعياء و التعب، لم تكن قادرة على استيعاب فكرة هجر ورد لها، و كان أكثر ما يحفر في أعماقها الحزن اتهامه لها بأنها خائنة.

رحـل ورد عنهـا و آثـرت الصـمت و اتهامـه لها بالخطيئة على أن تجعله عرضة للخطر.

بكتـه بـأوجع مـا لـديها.. بـدموع يضـخّها القلـب بـأوردةٍ مـن نـار لتنـدلع مـن بـين جفنيهـا ترسـمُ علـى صـفحات وجههـا أطيـاف الهـوى الصريع.

كـان غيـاب لمـيس كالسـير علـى جمـرٍ فـي صـحراء قاحلـة فـي قلـب منـاف ، فوجودهـا معـه هـو النعـيم و الجنـة، فـإن غابـت اكفهـرَ وجه السماء و أظلم الكون.

كـان يتخيّلهـا سـقيمة، و طريحـة الفـراش، فيهبُّ واقفاً مذعوراً و يصرخ بأعلى صوته:

- يـا الله مـا نفعـي أنـا و لمـيس مريضـة ، كيـف لـي أن أهنأ و هي بعيدة عني !

و لا يلبـث أن يركـع علـى ركبتيـه خـائر القـوى، و ينتحب كطفلٍ أخذوه عنوةً من حضن أمه.

أخذت الأيام تتالى ، و يتعاقب الليل و النهار دون أن تخلع الأيام لباس الحداد.

و قرر ورد أن يطوي ذكرياته ، و يرميها في حاوية الماضي ، و عاد إلى متابعة الحياة و الالتزام بعمله ، فقد أجبر نفسه ألا يدع لطيفها ثغرةً يدلف منها في مخيلته مع تصميم قوي بتمزيق وثائقه التي كان يركنها تحت إبطيه الشرف و الأمانة.

لا بدّ أن الله استجاب لصلوات مناف ، و دموعه السخية فقد عادت لميس إلى جامعتها و قررت أن تشارك منافاً في أعماله الخيرية كي تتناسى ما مرّ بها من رزايا و محن.

فلا شيء يضمد جروح الروح كتقديم الإحسان للمحتاجين، و زرع ابتسامةٍ على وجوه الفقراء بعد بكاء طويل.

الفصل الثامن

(سرُّ مناف)

تهاوتْ حصونُ نفوسٍ من ناظري

كنت أظنها متينة..

يتدانى أعلاها من أسفلها و تُباحُ

حرماتها الدفينة...

حسبي الله من زمنٍ أُقيم فيه

الحدّ من فجرته للعقول الرزينة...

تخرجت لميس من الجامعة بمعدلٍ جيّد، و انبرتْ إلى العمل المتزايد يوماً بعد يوم متجاهلةً تخمتها بالآلام.

فقد حققتْ مع مناف أعمالاً إنسانية لا يُستهان بها.

كانوا يزورون أسر الشهداء مع الشبان و الشابات المتطوعين معهم، و يتبيّنوا احتياجاتهم و مسلتزماتهم ، فيجمعون كل ما لديهم من أموال كل شهر لعدد من العائلات.

و تعاونوا لدعوة أكبر عدد من المتطوعين لهذه المهمات، و لإنجاز ما يُمليه عليهم ضميرهم الإنساني.

و في أوقاتٍ كثيرة تسرح بتفكيرها لتُسائل نفسها:

- " كيف تستطيع الانتقام من مناف بعد كل ما بذله من جهود جبّارة ليرضيها ! فهو يمزق نفسه تمزيقاً ليلملمها ، و هو الذي تمرّد على حياة الترف و الجاه و انصاع

ليسلك سبلَ الخير و الإحسان المحفوفة بالتعب و الكدّ و الأشواك !

و هل تعتبر لميس بأنّ تقويم شخصية معقدة مثل شخصية مناف و إرشاده إلى جادة الصواب أفضل من الانتقام منه و دفع الشر بالشر؟"

إنها غيّرته بشكل كليّ ، فلم يعد ذاك الشاب الذي يهتمّ بملابسه و حليّه، و تسريحة شعره لقد غدا في أكثر الأوقات غير مبالٍ بالمظاهر الكاذبة ، و يكرّس معظم أوقاته ليكون كطفلٍ مطيع أمامها يلطخ العرق جسده المتعب فيخالجها شعور كبير من الارتياح فهي حققت انتصاراً كبيراً.

هي لم تحبه و لن تحب أحداً إلّا ورد و إن أوغل في هجره لها مدى الحياة ، لكن منافاً يستدعي شفقتها لسبب مجهول لم تستطع إدراك ماهيته.

و في أحد الصباحات بينما هو منهمك بترتيب السلال الغذائية و فرزها جانباً عن

السلال التي تحتوي مواداً تنظيفية بمساعدة شابين من أصدقائهما في مركز اجتماعاتهم المعتاد "الحديقة" التي التقيا فيها أول مرة و كل مرة ، نادته لميس فجأة:

- مناف تعالَ و اجلسْ قليلاً فقد أنهكتَ نفسك كثيراً اليوم.

نظر إليها بحب و ابتسامته ترتسم على وجهه بين قطرات العرق المتناثرة اللامعة و قال:

- حاضر أيتها الغالية انتظري ريثما أحضر القهوة.

غاب قليلاً و عاد بيده كأسين من القهوة و جلس بجانبها.

نظرتْ إليه مليّاً و قالتْ بصوت أشبه بهذيان:

- لو تدري يا مناف ما نالني من بؤس بسببك أنت الذي حطمتَ قلبي و مزقت بلا رحمة روحي و جعلتها أشتاتاً.

و طفحت عينيها بالدمع الحار الملتهب.

نـزل كلامهـا كالصـاعقة علـى رأس منـاف ، و فغر فاه و ما لبث أن سألها صارخاً برعب:

- لمـاذا تقـولين هـذا الكـلام بربـك يـا لمـيس ! و مـا الـذي أسـمعه ! فليسـحقني الله إن كنـت سـبباً لبؤسك.

أحنـت رأسـها قلـيلاً ، و مسـحت بـأطراف أصابعها أجفانها المبللة و أردفت:

- نعـم هـذه هـي الحقيقـة ، لقـد جئـتَ إلـى قريتنـا برفقـة شـبّان و تعرضـتَ لرجـلٍ بـائسٍ ظلمـاً و أهنتـه و بصـقتَ فـي وجهـه لا لشـيء إلا لتُرضـي غـرورك و طيشـك و لتجعلـه سـخرية لرفاقـك العـابثين لمـاذا يـا منـاف لمـاذا ؟ و هـل تدري من هو ذلك الرجل؟

انـتفض منـاف و قـد اسـتعاد بذاكرتـه الضـبابية ذلك اليوم وقال:

- مَنْ مَنْ يكون؟

و بصوت يحترقُ كآبة قال :

- إنّـه والـد الشـاب الـذي أحببتـه بعمـق ، فأنـت بفعلتـك هـذه قتلتـه لقـد سـاءتْ صـحته ، و تغلغـل بـه المـرضُ جـرّاء مـذلتك لـه و لولـده الشـهيد، و مـات بحسـرةٍ دون أن يُخبـر أحـداً، أتـدرك مـدى القسـوة و الوحشـية فـي أن يمـوت شـخص بـائس مـن مذلّـة دون أن يُخبـر أحـداً؟ أتدرك هذا يا مناف ؟

جحظـت عينـا منـاف و لجمـه الخـوف الـذي ارتعشت له فرائصه و قال بصوت مرتجف:

- لميس هل مات الرجل بسببي أنا؟

- نعـم يـا منـاف لقـد مـات و لـم يحتمـل البصـقة التـي أجبرتـه أنـت ألا يمسـحها حتـى تجـف، مـات و لـم يحتمـل شـتيمتك لولـده و قـد قـررت منذ ذلك الوقت الانتقام منك.

أطرقـت أرضـاً و تأهبـت قسـماتها للبكـاء ، و تابعت بانكسار:

- لقد رآنا حبيبي سويّاً هنا ، فمضى مثلما جاء مخلفاً قلباً يتشظّى بحبه و بآلام فراقٍ لا يهدأ وجعها.

انتفض مناف كطير مذبوح، و أخذ يرتعش بشدة و قال بتوسل:

- لميس أرجوك لا تقولي هذا الكلام، فأنا مستعد لأي عقوبة مهما عظُمتْ إلا أن تتركيني و تبتعدي عني أرجوك ليس لي في هذه الدنيا سواكِ ، لا أثق بأحد إلا بك أرجوك .. أرجوك.

و جثا على ركبتيه يحاول تقبيل حذائها و الدموع كسيل جارف على سفوح وجهه.

أمسكته لميس من كتفيه و قالت:

- انهضْ يا مناف أنا لم أنفذ وعيدي ، و أنتقم منك ، لقد أراد الله أن يتحوّل انتقامي منك إلى عزمٍ لتغييرك و جعلك تعبر مستنقعات الفسق و الفجور، و تكفّر عن ذنوبك و

أخطائك بالإحسان و الخير، لقد كانت شفقتي عليك أكبر من قسوتي و من انتقامي.

وقف مناف و أخذ يرنو إلى السماء وسط سيل دموعه و صرخ بأعلى صوته:

- سامحني يا الله، لقد كان الخمر يُعمي بصري و بصيرتي، سامحني يا الله لأنني قتلتُ نفساً بريئة بغير حق .

و تهالك جسده على الأرض مغمى عليه.

ذُعرت لميس و هرعت تصرخ ، و تنادي لأصدقائها الشبان الذين كانوا على مقربة منهما ليسعفوه معها إلى المستشفى.

جاء شابان و حملوه إلى سيارة أجرة برفقة لميس التي كانت ترتجف كريشة في مهب الريح.

أدخلوه الإسعاف و أعطوه إنعاشاً ، كان يهذي باسمها و العرق يتصبب و ينضح بغزارة من جسده.

و عندما استعاد وعيه شيئاً فشيئاً نقلوه إلى غرفة ثانية في الطابق الثاني ريثما تتحسن حالته ، كانت عيناه لا تفارقان لميس فهو يستجدي بقاءها و قلبه يمتلئ بهجة لمجرد رؤيتها فبقيت عنده.

و بعد أن هدأ قليلاً قال لها بلسان منهك و ثقيل:

- أنا مجرم يا لميس و أستحق الموت ، إني لأشعر بالموت يزحف إليّ بخطوات ثقيلة لكنني سأُفضي لك بما أخفيه في أعماقي أرجو أن تسمعيني.

قالت لميس و ملامحها تكسوها الشفقة:

- أنا أسمعك يا مناف ، قلْ ما الذي تخفيه.

و بكلمات تضجّ قهراً قال:

- في حلقي غصّة قهرٍ لا تزول ، فمنذ طفولتي امتطى الخوف صهوة قلبي ، كنت

فـــي الســـابعة مـــن عمـــري عنـــدما افترســـني الرعب و الهلع.

عشـنا مـع أب كـل همـه تخـزين الأمـوال، كـل هدفــه أن يعلــو و يعلــو بمركــزه علــى رقــاب الضــعفاء ، فمــا شــاهدته يومــاً يتصــدّق علــى مسكين أو يغيث ملهوفـاً ، لـم يـرأف بـآلام أحـد يوماً.

تـدحرجت الـدموع علـى وجـه منـاف و تـابع كأنــه يُفضــي مواجعــه لطبيــب نفســي علــى كرسي الاعتراف.

- لا أنســى ذلـك اليـوم المشـؤوم عنـدما خـرج والـدي فجـراً متـذرعاً بالسـفر إلـى الخـارج و كثيـراً مـا كـان يتـذرع بالأسـفار، و مـا إن حـلّ المساء حتى أمرتنا أمي أن نلوذ إلى النوم.

كانــت تســيطر علينــا ســيطرة تامــة ، وكمــا النعــاج التــي لا حــول لهــا و لا قــوة ذهبنــا صاغرين مكرهين منكوثي الرؤوس.

و بعد منتصف الليل غلبني النعاس ، فرأيت في منامي أفعى ضخمة سوداء تلفّ جسدها الأملس المخيف حول رقبتي لتخنقني ، كنت أقاوم بشدة و أصرخ ملء صوتي لأنجو من الموت اختناقاً فتتمايل و تضغط عليّ بقسوة.

أفقتُ مذعوراً و الخوف يحتلّ جسدي ، ركضتُ إلى غرفة أمي كأي طفل باللاشعور يندفع دون تفكير إلى أكثر الناس أماناً له، فقد كنت أظن بأنّ الأم هي الملاذ الوحيد الذي يلجأ له الأبناء من مخاوفهم ، كنت أظنها كما الله تقينا العثرات و تقاوم مخالب الدهور لنبقى آمنين من كل شر.

و قبل وصولي إلى باب غرفتها سمعت أصواتاً داخل مخدعها تأوهات و ضحكات خافتة.

وقفتُ مشدوهاً لا أعرف ما سأفعل اقتربتُ و تلصصتُ من ثقب الباب لأرى ملاذي

الأخير في أحضان رجل و أي رجل ! كان صديق والدي الحميم.

توقف مناف عن الكلام و وضع كلتا يديه على وجهه و قد انفجر باكياً و أخذ ينشج ألماً و تابع :

- كانت تتلوى بهوة الفسق و الرذيلة كتلك الأفعى التي هاجمتني، و تغوص في بؤرة الإثم و الخطيئة مع عشيقها في فراش والدي.

عقدت الصدمة لساني ، و عدتُ كسير الخاطر إلى غرفتي و من ذلك اليوم و أنا أشمئز منها و من كل النساء و لم أخبرها أنني رأيتها لأنني خفتُ منها و من عقوبتها المعتادة لي و لأخوتي ، لقد كانت تكويني بالمكواة الملتهبة إذا ما أخطأنا ، أو حتى أزعجنا هدوء قيلولتها..

كم كنت أفكر بخيالي الطفولي و أسأل الله في سري " إذا كنا نحن نخطئ فنكتوى بمكواة

ملتهبـة ، فمـن سـيكوي أمـي علـى فعلتهـا ، و كم حجم المكواة التي ستكويها ! "

همست لميس بحزن بالغ:

- أيّة أمّ هذه !

تابع مناف بلوعة تختلط بقسوة:

- تولّدَ فـي نفسـي حقد و ضـغينة لهـا و لوالـدي، فهـو مـن كـان يفـتح أبوابـه للجميـع مـن أمثالـه ، و يسـمح لكـل أصـدقائه بالـدخول إلـى منزلـه و شرب الخمر برفقة أمي.

لـيس هنـاك أقسـى علـى المـرء مـن اللحظـات التـي يقـف متفرجـاً و مثلـه الأعلـى يـتحطم ، و وتتهـاوى حصـون و قـلاع لتغـدو رمـاداً بعـد أن كانت كل عالمه.

جعلونـا نتقيـأ الفضـيلة ، و نحتسـي خمـور النفاق لم يربّوا فينا إلا حب المال و القسوة.

كبـرت و قـد اسـتحللت لنفسـي أي لمـرأة ، لـم أتـوانى عـن هتـك عـرض ، و تعاظمـت أخطـائي، و طفحـت شـروري و لكننـي فـي بعـض الأحيـان أجلـس وحيـداً فـي الظـلام أبكـي بمـرارة ، أبكـي أشـياء ثمينـة فقـدتها فـي حيـاتي حضـناً يضـمني بعطـف ، كـم أتـوق لأمٍّ كبـاقي الأمهـات، تُخـيط لـي سـروالي إذا مـا انفتـق قلـيلاً ، أو تعتنـي بطعـامي و تزفـر همـاً إن مرضـتُ ، أشـتاق لشـرفٍ يختـال بنصـاعته لـيس مباحـاً لأحـد ، لأبٍ يُصـلي لله بخشـوع و يمتلك شهامةً و غيرة على عرضه و شرفه.

شـربتُ الخمـر بـاكراً ، كنـت أحتسـيه حتـى أُفقد رشـدي و وعيـي و مـن ثـم أذهـب إلـى المـواخير لأصـطاد الأجسـاد الرخيصـة لقـد تلوّنـت كـل النساء بلون أمي التي كانت تتلوى كأفعى.

كانـت لمـيس مصـعوقة مـن هـول مـا سـمعت تتشهق كالمحتضرة و تكتم شهقاتها بكفها.

تابع مناف سرد حكاية مرارته:

- أنتِ يا لميس مَن جعلتني أعرف و أؤمن بأنّ النساء مختلفات و لسن بلون واحد كبرياؤك و عفتك و عزة نفسك و محبتك للفقراء كانوا كصفعة قوية أيقظت بي جانباً مختبئاً في مغاور نفسي.

لم أحبكِ لأنني فُتنتُ بجمالك لا .. فقد عاشرتُ أجملَ منك لقد أسرَتني رائحة الشرف المختال بنصاعته الذي ينتشر من مسامات جلدك و من عبير روحك ، فمن الاستحالة لأيّ رجلٍ أن يُعريّكِ حتى و لو في خياله.

أنا يا لميس لم أعدْ أريد شيئاً من الحياة ، أريد الموت و أن تُرافقي ساعات احتضاري لأموت سعيداً بقربك لقد فقدتُ الأمل في الحياة.

وضعتْ لميس يدها على فمه كي لا يُكمل حديثه و قد غمرها الحزن لمواجعه ، فهو شهيد بالفعل لعائلةٍ تستحق الحرق بالنار،

لأب تخلـــى عـــن أبوتـــه ، و أمّ باعـــت حنانهـــا لمستنقعات الخطيئة.

همست لميس:

- لا يـا منـاف لـم تفقـد الأمـل ، هـا أنـا أراك حتـى الآن حيّـاً ، فالإنسـان يحتمـل العـيش بـدون طعـام أكثـر مـن عشـر أيـام و بـدون مـاء اكثـر مـن ثـلاث أيـام ، و قـد يعـيش بـدون أنفـاس لـدقائق معـدودة لكـن مـن المحـال أن يعـيش لثـوانٍ بـدون أمـل ، لا يسـتطيع معاشـرة اليـأس لحظـة واحـدة، حتـى لـو أحـس بـأنّ الأمـل مفقـود إلا أنّـه ضـمنياً يمتلـك إيمـان راسـخ بأنـه موجـود في مكان ما.

لا تكـن ضـعيفاً و مهزومـاً هكـذا ، فأنـت لسـت شـــريراً لقـــد تفاقمـــت عليـــك المواجـــع ، و ترعرعـت فـي نفسـك المتاعـب حتـى جعلتـك تنحـرفُ غصـباً ، أنـت تعتـرف بأخطائـك و يعتصـرك النـدم ، فالنـدم هـو الضـمير الحـي الـذي يجعلنـا نمحـو بممحـاة الإحسـان و الخيـر كل ذنوبنا التي اقترفناها.

كــن قويــاً و انتصــر علــى الحيــاة، و أنــا سأساعدك بكل عزم لكي تتمكن من مجابهة ضعفك لقد بدأتَ سبل الخير و تبدلت أحوالك و عرفت بأنّ الفضيلة في نزع الشرور من النفس، لا تستسلم بسهولة ، فأنا لن أتخلى عن واجبي تجاهك و سنُكمل معاً طريق الخير الذي سلكناه و أنا متأكدة أن الله سيغفر كل ذنوبك لأنه تواب رحيم.

* * *

جلس ورد على شرفة منزله يتأمل سيارته السوداء المركونة أمام المدخل و قد شيّد لها مظلّة خاصة لتقيها من الشمس ، فقد ابتاعها منذ أيام قليلة.

أخذ يرتشفُ قهوته و يدخن ، لقد انقشعت من سمائه غيوم الفقر التي كانت تمطر عليهم

وابـل أحـزان و امـتلأت بطنـه حتـى أُتخمـتْ فنسي الليالي التي كانت تظلّ فيها خاوية.

تنهد بارتياح و همس في سره :

" المال شيء عظيم".

فمـا لبثـت أن مـرت لمـيس بخـاطره ، لقـد أصـبحت ذكراهـا سـريعة الـزوال تظهـر بغتـة بالمصـادفة و مـا تلبـث أن تختفـي لتخلّـف آثـاراً مؤلمـة لمـاضٍ لا يريـد اسـترجاعه خاصـة بعـد أن تلوثـت نفسـه بغبـار النفـاق و الريـاء ، إنـه صـار يـوقن بـأنّ الحـب مـن ممتلكـات الفقـراء فحسب.

ابتسـم باسـتهزاء فهـو أضـعف مـن أن يكـبح نفسـه عـن الطـرق الملتويـة و الرشـوة و قـد اعتاد أن تنتفخ جيوبه بالمال.

حطّـم ذلـك الصـمت المرهـق بالأفكـار المتشابكة صارخاً:

- أمي .. أين أنتِ؟ أمي.. أمي

هرعت نبيلة إليه تمسح يديها بأطراف ثوبها من البلل و قالت :

- ما بك يا بني ؟ ماذا تريد؟

نظر إليها باستهزاء ووضع يده في إحدى جيوبه و قال :

- أمي إن فستانك يبعث على الأسى ، خذي هذه النقود و اشتري غيره لا بل اشتري ثلاثة أو أربعة أو حتى عشر فساتين.

أدارت نبيلة ظهرها له و قد اخترقتها قشعريرة بصورة مباغتة من رأسها حتى قدميها.

إنه لم يعد ورد الذي كان، حتى تكاد لا تعرفه ، لقد انقلب رأساً على عقب ، فهو يتعالى حتى على أمه.

باتت لا تجرؤ التحدث إليه بأي موضوع، تنفذ أوامره كجارية و ليس كأم و تطلق العنان لبكائها الصامت لتغوص في سراديب

ذاكرتها الحالكة ، إلى أيامٍ كانت هي سيدة البيت و كلامها مسموع ، لم تعد قادرة على فرض احترامها على أي شخص بعد أن أجبرها ورد الانصياع الكامل له ، و عندما كانت تذكر لميس أمامه ينتفض غضباً و يصرخ:

- ليست الفتاة الوحيدة على الأرض ، هي ليست لي و لن تكون .

فتلوذ بالصمت و الأسى يملأ عينيها و وجدانها.

الفصل التاسع

(حاوية الآمال)

محترقٌ في دمي

و أنت الصراخ الذي لا يصل إلى أذن.

مشنوق على مشارف قلبي

مضرجٌ بدماء أشواقي

أبكيك حيناً.. و حيناً

يرتسم وجهك ابتسامة

تشق عباب الموج الهادر

تـــوارد رنـــين الهـــاتف إلـــى مســـامع لمـيس بينمـا كانـت مشـغولة بارتـداء ثيابهـا كـي لا تتأخر عن أصدقائها في الحديقة.

أسـرعت إلـى هاتفهـا فـإذا بهـا ميرفـت ، ردت بسرعة:

- ألو ميرفت كيف حالك؟

- أهـلا لمـيس لقـد اتصـلتُ ثـلاث مـرات و لـم تجيبـــي فظننـــتُ أنـــك قـــد نســـيتِ هاتفـــك فـــي المنزل و خرجتِ...

قاطعتها لميس:

- أسـفة يـا ميرفـت كنـت أرتـدي ثيـابي فـي الغرفة فأنا ذاهبة إلى اجتماع الأصدقاء.

- أي اجتماع ؟ و أي أصدقاء ؟

- لقـد شـكلنا مجموعـة مـن الشـبان و الشـابات المتطـوعين لجمـع التبرعـات الماليـة ، و شـراء مـا يلـزم مـن حاجيـات أساسـية ، و مـؤون لأسـر

الشـــهداء و أســـر جرحـــى الحـــرب ، و هـــو مشـــروع صـــغير لكننـــا نســـعى لتطـــويره و إيصـــال صـــوتنا إلـــى أكبـــر عـــدد مـــن الـــذين يدعمون عملنا الإنساني .

فانهال صوت ميرفت مقاطعاً:

- يبدو أنني لا أعلم عنك شيئاً.

و امتزجـت كلماتهـا بضـحكة عذبـة ، فقالـت لميس و قد تراءت لها فكرة:

- ميرفـت مـا رأيـك بالانضـمام إلينـا ؟ فـنحن نحتـــاج إلـــى المزيـــد مـــن المتطـــوعين و المتطوعات لهذا العمل الخيري.

ردت ميرفت و قد راقت لها الفكرة:

- طبعـاً بكـل سـرور يـا حبيبتـي ، لكـن أيـن تلـك الحديقة لأذهب و أراكِ ؟.

أعطـت لمـيس لميرفـت عنـوان الحديقـة ، و تواعدتا على اللقاء بعد ساعتين.

وصلت لميس إلى الحديقة حيث الجميع منصرفون للعمل ، و مناف يُملي النصائح على البعض ، و ما إن التفتَ و رآها مقبلة بسرعة حتى هلل بصوت يملؤه الفرح العارم:

- جاءت أجمل الجميلات ، فليقف الجميع و يُقدّم لها التحية.

كانوا يحبونها حبّاً كبيراً، و يشعرون بأنها المثل الأعلى في الأخلاق الحميدة و الإنسانية اللامحدودة فهي الأم و الأخت و الصديقة للجميع.

انشغلوا مجدداً بفرز المؤون و الحاجيات، و لميس بين الفينة و الفينة تترقب باب الحديقة.

لم تُطل ميرفت الغياب، ركنت سيارتها جانب الرصيف و نزلت ، فركضت لميس باتجاهها بفرح و عانقتها بحرارة.

- تعالي لأقدم لك أصدقائي.

أمسكتها بيدها، و قادتها حيث هم يعملون ، و صدح صوت لميس عالياً:

- انتبهوا جميعاً، إنها ميرفت صديقتي، و رفيقتي الغالية، و هي تتوق للانضمام إلى مجموعتنا.

بادرها الجميع بابتسامة رضا و أعقبوا:

- لنا الشرف بذلك أنسة ميرفت.

و أخذت لميس تعرفها عليهم فرداً فرداً، و عندما وصلت إلى مناف قالت:

- مناف العلي وهو رئيس المجموعة ، و المساهم الأكبر في تلك الأعمال الخيرية.

و هنا غمر وجه ميرفت الاستغراب الشديد ، و حدجت لميس بنظرة استفهام عميقة ، و عادت ترمق مناف باشمئزاز واضح و قالت:

- أنت ؟!

و توجهت إلى لميس التي علمت ما يدور بقرارة نفسها، و حاولت لجمها عن أي كلمة جارحة لكن ميرفت بادرت:

- لميس أليس هذا ابن أبي العلاء الذي....

قاطعها مناف و قد فطن لما ستقوله:

- سررت بمعرفتك أنسة ميرفت.

فأشاحت بوجهها عنه ، بينما لميس اقتربت منها تهمس بأذنها:

- سأخبرك لاحقاً بكل شيء ، أرجوك يا ميرفت لا تجرحيه بأي كلمة الآن.

انصاعت ميرفت لرجاء لميس ، لكنها قضت كل الوقت واجمة شاردةً.

انتهى الجميع من تغليف السلال ، و انبرى كل شخص ينفذ ما أوكل إليه من مهام ، و أخذوا بنقل الأغراض إلى السيارات التي

تعاقدوا معها لإيصالهم إلى القرى التي دُونت أسماءها في الدفتر.

لم ينتهوا من مهامهم إلا و الشمس تتأهب للتخفي وراء الأفق مودعةً نهاراً مكللاً بالتعب.

تعمدت ميرفت أن توصل لميس بسيارتها إلى القرية ، و ذلك لتسنح لها الفرصة و تسألها عمّا تشابك في رأسها من أفكار غامضة.

و في طريق العودة قصّت لميس لها كل شيء ابتداءً من اليوم الأول الذي عرفت فيه مناف حتى هذه اللحظة.

و أثناء الحديث بدت ملامح ميرفت تنقبض بشدة أحياناً ، و تنبسط في أحيان أخرى و هي تسمع تفاصيل علاقة لميس بمناف ، و كيف ضحّتْ بحبها لورد لتنقذه من التهور و كيف تفاقمت مشاعر الشفقة في نفسها تجاه مناف و استطاعت أن تنتشله من براثن الضياع الفتّاكة ، و ما إن انتهت لميس من

سرد القصة حتى غزا وجهها الدمع الغزير فقد تذكرت هجر ورد لها و اتهامها بالإثم والخيانة.

تنهدت ميرفت بعمق، و ربتت على كتفها مواسية:

- لا بدَّ أن يأتي يوماً ، و تنكشف الحقيقة الناصعة لورد، فأنت تصرفتِ بما يُمليه عليك الواجب و الضمير، فلا تقنطي يا صديقتي، و ثقِ بالله ، فالحق مهما توارى و أرخى خماره لا بدّ أن ينبثق ضياؤه.

وصلوا إلى القرية الهاجعة ، فنزلت لميس بعد أن تواعدتا بعد أسبوع لقاء مناف ليذهبوا في جولة إلى قرى جديدة و استقصاء المزيد من الأسر التي نالت منها أنياب الحرب.

أقفلت ميرفت راجعة إلى اللاذقية و صورة مناف تنال من مشاعرها و تفترسها ، لقد حزنت أشد الحزن عليه لأنه أحد الضحايا الذين يحتاجون للمساندة و الدعم حتى يتجاوزوا انهياراتهم النفسية، و صممت في

قـرارة نفســها ان تقـف إلــى جانبــه مــع لمـيس دون تردد.

* * *

كــان القلـق يفتـك بنبيلــة لمــا آلــت إليــه أحـوال ورد المترديـــة و تتجـــرع مرارتهـــا بصـــمت، تـدعو الله سـراً أن يهديـه ليعـود كمـا كـان نزيهـاً و عفيفـاً فقـد آثـرت حيـاة الفقـر التـي لـم تلـوث قلوبهم بالأدران.

فما زاده الغنى إلا تمرداً و تكبراً.

فهـو لا يتـوانى عـن التـذمر و كـأنهم عـبء كبيـر علـــى عاتقـــه ، و كـــانوا يمضـــغون جـــراحهم بصمت قاتل.

و فــي أحـد الأيــام جــاء ورد ظهـراً علــى غيـر عادتـــه ، رأت ســيارته مـــن النافـــذة فأســـرعت لتفتح له الباب .

بادرها قائلاً بصوت خافت:

- أمي معي ضيفة أريد أن تُحسني استقبالها.

فوجئت نبيلة بفتاة تتجه نحوها سمراء طويلة جميلة بعض الشيء.

تفحصتها نبيلة باهتمام و قالت بعد جهد:

- أهلا و سهلا يا ابنتي تفضلي بالدخول.

قال ورد مبتسماً:

- ماما إنها هناء راتب ابنة السيد شريف راتب صاحب أكبر شركة استيراد و تصدير في الساحل .

اغتصبت نبيلة ابتسامة و قالت:

- البيت بيتك يا ابنتي ، سأحضّر لكم الشاي فقاطعها ورد:

- لا أحضري لنا الغداء أولاً ، فأنا و هناء جائعان.

أومـأت نبيلـة برأسـها ، و أسـرعت لتحضـير الغداء وسط دهشةٍ كبيرة.

بعـد الغـداء جلـس معهـا علـى الشـرفة يشـربان الشاي و حديثه لا ينقطع كان سعيداً جداً بها.

أيقنـت نبيلـة بـأن ورد عـازم علـى الارتبـاط بهـا، فـزاد همهـا و غمهـا لأنـه لـم يعـد يسـتطيع التصرف بحكمة.

لـم يخـب ظنهـا فبعـد أسـابيع قليلـة طلـب ورد منهـا ومـن أختـه ميـرا مرافقتـه إلـى اللاذقيـة لطلب يد هناء ابنة السيد شريف راتب.

لـم تبـدِ أمـه أي فـرحٍ بالنبـأ إنمـا وافقـت علـى مضـض مرغمـةً ، فحسـرتها كبيـرة علـى خسارة لميس التي تحبها حباً كبيراً.

كانـت أسـرة هنـاء متعاليـة جـداً، وتهـتم بالمظـاهر المزركشـة ، و جـلّ حـديثهم عـن الموضـات و الماركـات الأجنبيـة و المتنزهـات التـي يرتادونهـا و التـي لـم تعـرف نبيلـة عنهـا شيء في حياتها المديدة.

لقد تنبأت نبيلة لورد التعاسة مستقبلاً ، لكن كلامها معه لم يعد يُجدي ، و انتظرتْ ما ستؤول إليه الأيام.

و تمت خطوبة ورد و هناء وسط جو صاخب و حفل كبير تناقلته الأخبار الاجتماعية و بعض المواقع الالكترونية.

نزل الخبر كالصاعقة المدمرة على رأس أبي حسين الذي أغلق دكانه بسرعة وهرع راكضاً إلى البيت.

فتح الباب و دخل ليهمَّ بطرقِ باب غرفة لميس، فسمع أنيناً يفتت الأكباد.

كانت جاثمة في سريرها و الوسادة بين ذراعيها ترنو إلى النافذة وسط وابل الدمع و تناجيه بأوجع ما لديها من كلمات.

" آه يا ورد كيف أوقف الحنين الذي يجرفني إليك !

و أضمد نزيف جروحي !

كنت النور لعتمتي ، و النبض لقلبي..

عشــقتك حــد الجنــون و الألــم و الوجــع.. و الآن يــا حبيبــي أطفــأتَ النــور مــن عيــوني و بــألف خنجــرٍ فــراق طعنتنــي و شــردتني فــي طرقــات العمــر وحــدي... آه يــا ورد كــم أنــا موجوعــة لا شــيء يحيــا بعــدك فــي قلبــي المهجور"

طــار صــواب أبــو حســين و لــم يعــد قــادراً أن يســتمع إلــى مواجعهــا أكثــر ، ففــتح البــاب و دموعــه تســبقه و جلــس علــى حافــة الســرير ليجذب رأسها إلى حضنه بحنان فقالت:

- آه يا أبي لقد مات قلبي.

و انفجرت بالبكاء الصارخ بين ذراعيه.

- اهــدأي يــا صــغيرتي اهــدأي لا تــوغلي بتعــذيب روحــك أكثــر و تعــذيبي أنــا ، هــو لا يستحقك ، هو انسان سافل.

انتفضت لميس كأن أفعى لسعتها و حملقت بذعر و صرخت :

- لا لا هو ليس كذلك ، أنا أستحق ما فعله بي.

سألها باستغراب:

- كيف؟ ما الذي تخبئينه عني يا لميس؟ هيا أخبري أباكِ كل شيء.

استقامت لميس بجلستها ، و مسحت دمعها بباطن كفيها لتغدو نظراتها أكثر حدة و بدأت تقص لوالدها كل ما سلف و كان.

تبكي تارة و تتابع حديثها ممزوجاً ببحة البكاء و هو منصتٌ باهتمام بالغ و التأثر يمتلك مشاعره ، و بعد أن انتهت أطبق الصمت المريب على كليهما.

وقف أبو حسين حائراً و اتجه إلى النافذة المطلة على الطريق و قال بلهجة عاتبة :

- لقد أخطأتِ يا صغيرتي ، لم يكن من الصواب أن تُخفي شيئاً ، كان يجب عليكِ إخباري بما ستقومين به و كنت أنا عالجت الأمر قبل تفاقمه لم يكن من الصواب أن تلتقي منافاً و أن تقرري الانتقام منه ، أنت و ورد كنتما مخطوبين و ليس من حقك ملاقاة مناف و إن كانت علاقتك به بريئة فأنا لا أشك بأنك نقية و طاهرة، ورد ليس مُلام فمن الطبيعي أن يراوده الشك لأن الذي يحب ليس بمقدوره التفكير بمنطقية فالحب لا يحكمه المنطق لأنه ينبثق من وهج المشاعر.

أريد منك أن تتجاوزي أحزانك بصلابة و ليفعل الله ما يشاء.

مضت أيام و لميس تُكابر أحزانها و مدامعها كي لا تزيد من هموم والدها الذي يستمدّ الحياة من وجودها.

و في صباح يوم الجمعة استيقظ أبو حسين باكراً، و ارتدى ثيابه قاصداً منزل ورد و عازماً أن يبوح له بالحقيقة.

كـان الجـو مشـحوناً يُعلـن عـن اقتـراب عاصـفة و بــدأت نتــفٌ مــن الســحب تســبح بهــدوء و تتـزاحم لتلاحـق بعضـها الـبعض فتجعـل الكـون يظلم شيئاً فشيئاً.

طــرق البــاب طرقــاً خفيفــاً، و بعــد لحظــات فتحـت ميـرا و لا تـزال آثـار النـوم عالقـة علـى وجهها.

قالت بابتسامة طفيفة:

- أهلا عمي تفضل بالدخول.

- هل ورد في المنزل يا ابنتي؟

- نعم إنه هنا تفضل .

و أفسحت له مجالاً ليدخل.

خرجـت نبيلــة مـن جهــة المطـبخ يطـلّ الفـرح من قسماتها مهللة بوجوده:

- أهـلاً و سـهلاً أخـي أبـو حسـين إن منزلنـا ازداد شرفاً و اشراقاً بحضورك.

و بـدأت تجاذبـه أطـراف الحـديث ومـا تلبـث أن تتلـون ملامحهـا بالكآبـة عنـدما تتطـرق لـذكر لميس.

دخـل ورد متثائبـاً ، و رمقـه بنظـرة لا تخلـو من الاستغراب وقال:

- أهلاً عمي كيف الحال؟

- أنا بخير يا ورد عسى أن تكون أنت بخير؟

جلـس بجانبـه و طلـب مـن ميـرا بلهجـة آمـرة أن تُحضـر القهـوة، و التفـت إلـى العـم أبـي حسـين متسائلاً:

- هـل تحتـاج لشـيء يـا عمـي؟ أنـا جـاهز لأي خدمة تطلبها.

فوجئ أبو حسين من سؤاله فقال:

- لـيس مجيئـي بقصـد الحاجـة يـا ورد ، فأنـا لـم أعتــد طلــب حــاجتي أو التســوّل إلا مــن الله القـدير، لكننــي جئـت لأخبـرك بـأمر هـام خُفـي عنك، و من واجبي اطلاعك عليه.

رمــى ورد أمــه بنظـرة فهمتهـا نبيلـة علـى الفـور فهـو يريـد أن تتـركهم لوحـدهم ، لكـن أبـا حسـين فطن للأمر و اعترض قائلاً:

- لا ضـير مـن وجـودك يـا أم أحمـد ، و أتمنــى أن تسمعي ما سأقوله.

امتعض ورد و رمقه بنظرة غاضبة و قال:

- قلْ ما عندك يا عم فأنا أسمعك.

تابع أبو حسين متغاضياً عن وقاحته:

- لقد ظلمت لميس يا ورد.

وهنا هبَّ واقفاً مقاطعاً إياه:

- لنكـفّ عـن الحـديث حـول هـذا الموضـوع الآن.

- لا لـن أكـف و سـأخبركم الحقيقـة الناصـعة ، و أنـت حـر بعـد ذلـك ، المهـم ألّا يشـوب صـفحة ابنتـي شـائبة ألا تريـد أن تعـرف لـم مـات أبـاك يا ورد؟

فانفجر ورد ضاحكاً بسخرية و أجاب:

- طبعـاً اعـرف يـا عمـي، لقـد مـات أبـي لأن الله أراد ذلك.

- أرجـو أن تكـف عـن سـخريتك و تلتـزم الأدب معي.

صـمت أبـو حسـين و ضـبط أعصـابه كـي لا ينفجر من طريقة ردوده السخيفة و تابع:

- إن شخصـاً هـو الـذي تسـبب بموتـه بعـد أن أهانـه و شـتم أخـاك أحمـد ، و هـذا الشـخص كـان يتعـرض للمـيس و قـررت الانتقـام منـه و

الأخذ بثأر والدك حتى لا تتورط انت بعمل أحمق و تقضي على مستقبلك.

هنا جمدت أطراف نبيلة و كتمت شهقة مما تفوه به العم و عادت بذاكرتها إلى الأيام التي سبقت موت سلامة كيف اعتزل الجميع و فقد النطق و الشهية و كيف كان يمدّ يده إلى وجهه بقهر و يديم نظره إلى صورة أحمد و يتمتم بكلمات غير مفهومة ، لقد انقشعت حيرتها الآن، لكن ضحكة ورد قطعت سلسلة ذكرياتها ، لقد عاود ضحكه الساخر و قال:

- عمي هل أنا ساذج لأقتنع بأن إهانة شخص و شتيمته قد تجرّ المرء إلى الهلاك ! كف عن هذا أرجوك فكلامك هراء، إنها مشيئة الله.

ضاق العم ذرعاً من سخرية ورد لكنه كتم غيظه و قصّ لنبيلة متجاهلاً النظر إلى ورد كل ما جرى من وقائع و تضحيات لابنته في سبيل ورد و أخته ميرا و روح العم سلامة التي فارقت الحياة قهراً و حزناً بينما نبيلة

تتأوه لذكرى زوجها و للذلّ الذي لحق به و أرداه قتيلاً، و بعد أن أفضى أبو حسين ما في جعبته تنفسّ بعمق و قال:

- لقد قمت بواجبي، و أطلعتكم على ما خُفي من حقائق، فصرخ ورد بغضب عارم:

- لماذا تصرُّ و تلحّ على عرضِ بضاعتك الرخيصة؟ لميس لم تعد تهمني، فأنا سأتزوج من فتاة أحببتها منذ فترة وجيزة في القريب العاجل.

تصاعد الدم إلى وجه أبي حسين و راح جسده برمته يرتجف، كان ينتوي الوثوب على ورد و يوسعه ضرباً، لقد فقد القدرة على ضبط نفسه فزأر عالياً:

- لميس بضاعة رخيصة يا كلب؟ حلّت عليك لعنة الله يا مَن خلعت ثوب الإنسانية عندما شبعت ، ابنتي ليست بحاجة لوضيع مثلك فهي التي طلبت من مناف أن يتوسل لأبيه كي تصبح ضابطاً في الشرطة ، إن

النعمة التي تغرق بها بفضل لميس أيها السافل الحقير.

و وقف متأهباً للخروج و الشرر يتطاير من عينيه غير آبه لتوسلات نبيلة في البقاء فلولا نبيلة و ميرا لكان هشمه ضرباً.

وصل إلى البيت عاصفاً هائجاً و اتجه إلى غرفة لميس ففتحها و صرخ عالياً وسط ذهولها:

- امسحي دموعك للأبد هيّا و إياك أن تبكي إنساناً خالياً من الشرف ، هذا الحقير خلع رداء الأخلاق و الشرف و لبس أثواب الفسق و التكبر ، و إني لأجزم بأن منافاً يعلوه خلقاً و أدباً ، فهو لم يلقَ ناصحاً أو مؤدِباً، لم يلقَ التربية اللازمة ليستقيم، فما إن أضاء في ظلماته قبساً من الفضيلة حتى اهتدى و جاهد للتكفير عن أخطائه ناسياً ترف أبيه و مركزه المرموق، أما هذا الوغد فقد ترعرع في كنف أسرة صالحة من أبٍ فاضل و أم

فاضلة فلا مبرر لفسقه إلا أن الشر متأصل بجذور روحه.

توقعت لميس من كلامه بأن خلافاً قد احتدم بينه و بين ورد و لا شك بأن الأخير قد أهانه، فوثبت إلى أبيها تحتضنه و تسأله عما دار بينهما، فأخبرها و الألم يعتصره كل شيء و أردف :

- إنه يعتبر الجميع عبيد لديه، تخيلي أنه هزأ بموت أبيه و سخر مني و أهانني و أهانك.

ضمته لميس بحنان و قالت:

- لا تحزن يا أبي هذه مشيئة الله قد يكون زواجي من ورد خطيئة أراد الله إبعادي عنها، لا تحزن أرجوك فأنا سأمحوه من حياتي و لن أُضيّع لحظة تفكير به، فقد أحببت ورداً الفقير الذي لم تلطخه أوحال الدنيا، لكنه الآن مات و ليس هناك أمل يُرتجى من شخص ميت، هذا الذي تراه الآن لم يعد يعني لي شيئاً..

و أنـا أعـدك بـأن مـن يوجـه لـك الإهانـة سـأمحوه من بين قضباني ولو كان قلبي.

الفصل العاشر

(العقاب)

يداهمنا الفناء مقتلعاً جذور الحياة

بينما الهروب طريقنا الوحيد

و الخوف مفتاح عواطفنا

في لحظاتٍ نحب و نكره

و في رفّة رمش نحنو و نغضب

و ما يزال الفناء فماً بحجم تعاستنا

ينتظر قضمنا و لا يأبه لمدامعنا

لم يتخطَ مناف حدوده، فقد كان يعلم أنه لن يمتلك قلب لميس و مشاعرها، و يعلم مدى عشقها لورد و تفانيها في حبه و الإخلاص له.

لكنه كان متعلقاً بها كطفلٍ يتشبث بجلباب والدته ، و لم يخفِ تعلقه بها فقد كان قانعاً بقربها حتى و لو كانت تعتبره كأخيها، بالمقابل أحب ميرفت لأنها أيضاً تتربع على عرش الفضائل الحميدة كلميس ، و هي ذات خلق حسن ، فغدت الفتاتان أهله و نسبه و عالمه.

كما أن ميرفت كانت تعطف عليه و تقف إلى جانبه دوماً، و مع مرور الأيام أصبحت لا تطيق العيش إلا برؤيته ، لقد نما في أعماقها شعور خفيّ لم تدرك ماهيته في البداية، شعور يجعل أوردتها و شرايينها طافحة بالدم الحار لمجرد قربه منها، و ما إن يغيب حتى تتكدر سماءها بالرمادية ، فعلمت أنه الحب.

لكنها لا تعترف بهذا الحب ضمنياً ، عقلها يرفض الاعتراف ، و تتهرب من مواجهة أفكارها التي تشيح بوجهها بأصابع إتهام تمتد من عقلها لتقول لها " أنت مغرمة بمناف أشد الغرام" و تحاول أن تُثبت لقلبها

بأنهـا مشـاعر شـفقة لا غيـر ، إلا أن الـدمع يفضـح مـا يخـتلج فـي شـغاف قلبهـا، و تتسـاءل فـي حيـرة و خـوف " هـل يحـق لـي أن أحـب مناف ! "

* * *

فاحـت رائحـة فسـاد ورد فـي كـل مكـان، فقـد تنـاهى إلـى المسـامع حكايـا أسـاليبه الملتويـة ، و سـوء معاملتـه للعناصـر التـي تخـدم تحـت أمرتـه فـي مركـز الشـرطة ، لـم يكـن يأبـه أو يـداري سـفاهته فهـو الآمـر النـاهي و الويـل كـل الويـل لمـن يجـرؤ علـى مناقشـته فـي أي أمـر، فهـو مـن يفـرض الالتـزام علـى هـذا و يـأمر ذاك بـالتراخي حسـب مـا يحشـون جيوبـه مـن مال و ما يملؤون سيارته بالهدايا.

و كـان أحـد هـؤلاء العناصـر عنـده يقـدم لـه راتبـه الشـهري عربـون السـماح لـه بـالالتزام فـي منزلـه الكـائن فـي المحافظـة دمشـق، و التغيـب عـن الخدمـة و لـم يتوقـف الأمـر علـى سـلب راتبـه بـل يطالبـه بالمزيـد متناسـياً كـل مـا

يرسله له من هدايا ثمينة ، فأصبح ورد لا يتوانى الاتصال به إن احتاج لأي شيء، حتى ضاق ذرعاً بمتطلباته التي لا تنتهي، فلم يعد يلبي ما يأمره به فاستدعاه ورد للخدمة و الالتزام بالعمل لينتقم من تجاهله له.

و بالفعل جاء الشاب و قرر الالتزام بخدمته فهو لن يدعه يستغله أكثر من ذلك، لكن ورد أحس بالاستفزاز منه ، و تعمّد أن يُلصق به عملا مخالفاً لشروط الخدمة و قدّم بحقه تقريراً يستوجب سجنه بسبب الاهمال .

نفّذ العنصر الحكم الذي دام شهراً ظلماً لكن الغيظ أخذ منه كل مأخذ ، و قرر أن يرد له الصاع صاعين حتى لو تورط معه بفساده.

و بعد أيام قليلة من خروجه طلب مقابلة ورد في المكتب ، فوافق ورد أن يقابله و عندما مثل الشاب أمامه سأله ورد عما يرمي له من المقابلة.

اقترب الشاب و قال له:

- سيدي أنا أعترف بأنني خذلتك ، فأنت كنت الصدر الرؤوف و الحضن الحنون و أنا أنكرتُ معروفك لكن لم يكن بيدي حيلة فقد نفذ مني المال و أنا الآن جئت إليك لأطلب السماح منك و أتضرع لك كي تغفر لي إنكاري للجميل و لك مني ما تريد و أكثر، خذ راتبي كما كنت تفعل و لك مني أضعاف الراتب كل شهر و كل طلباتك أوامر.

انبسطت أسارير ورد و قد نال مبتغاه و قال بلهجة رقيقة:

- لدي من بين العناصر كلهم خمسة عناصر لا أجبرهم على الخدمة لأنهم لا يرفضون لي طلباً مهما كلفهم، و أنت أيضاً ستصبح مثلهم فأنا لا أستطيع القسوة لأنني امتلك قلباً طيباً، هيا اذهب و احضر لي هذا النوع من السجائر، و بعد وصولك إلى دمشق أرسلْ لي خمسين ألف ليرة لديّ غدا مصاريف كبيرة هذا الشهر.

تبسّم الشاب بخبث و قال بتودد مصطنع:

- أدامك الله يا سيدي ورد فأنت نعم الناس و التربية شكراً لطيب أصلك.

و ذهب الشاب ليحضر له السجائر التي طلبها ، و ليطمئن بأن هاتفه المحمول قد قام بتسجيل الحديث الذي دار بينهما.

لم يفطن ورد بأن أمثاله إن وقعوا في هوة الخطيئة فلن يجدوا من ينتشلهم منها بيد سحرية كالبعض ممن يسلكون دربه و هم مستندون إلى ظهور غيرهم من أصحاب النفوذ و المال ، فهو ليس وراءه ظهر نافذ أو سلطة تدعمه إذا ما أخطأ.

ذهب الشاب و لكن ليس إلى دمشق بل مطالباً مقابلة قائد الشرطة ، و بعد جهد جهيد و توسل عميق استطاع مقابلته.

فقدم التحية و قال:

- سيدي أريد اطلاعك على أمر هام ، إن الملازم ورد الأخرس يحاول ابتزاز عناصره و أنا واحد منهم ، فهو يُثقل كاهلنا بمطالبه و رشوته.

قاطعه رئيس الشرطة بغضب:

- هل لديك ما يُثبت أقوالك ؟

- نعم يا سيدي فقد قمت بتسجيل حديث دار بيني و بينه و فيه دليل قاطع على ما أقوله.

و فتح هاتفه المحمول و عمل على تشغيل الملف الصوتي.

و بعد أن استمع رئيس الشرطة إلى التسجيل احمّر وجهه غضباً و قال:

- بلا شك سينال عقابه على هذا الفساد و أنتم أيضاً مشتركون معه في انتشار الفوضى و الفساد، إلا أن جرمكم ليس بحجم جرمه فهو قد خسر مركزه للأبد في وظيفته أما أنتم فستحكمون بالسجن لإهمالكم.

ضـرب بقبضـته الطاولـة أمامـه و زفـر بغضـب شديد:

- ألا يكفيـه هـذا للبلـد مـا ينالـه مـن عـدوان و قتـل و استشـهاد و خطـف؟ أيـن أنـتم ممـا يحـيط بـوطنكم مـن حـروب و نيـران ! أليس مـن العـار أن تشـاركوا فـي تـدمير أوطـانكم ! فعـلاً نحـن شـعوب لا تسـتطيع التقـدم إلا بالعمر.

* * *

و فـي صـبيحة اليـوم الثـاني فـوجئ ورد الـذي كـان يسـتعد للـذهاب إلـى مكتبـه فـي مركـز الشرطة بدورية تطوق منزله.

أصـابته دهشـة كبيـرة عنـدما أمـر الضـابط المسـؤول باعتقالـه ، و لـم يرضـخ لـورد الـذي طلـب منـه فرصـة ليسـتفهم عـن السـبب الـذي جـاؤوا لأجلـه ، أخـذوه عنـوة وسـط خـوف والدتـه التـي بكـت بحرقـة و توسـلت للضـابط

ألا يجـرّه بهـذه الطريقـة كأنــه مجـرم لكنــه لـم يلتفت إليها.

لقد كانت التهمة مُثبتة عليه، و لم ينفعه أحد.

تـواردت أخبـار فضـيحة ورد إلــى كـل بيـوت القريــة بواســطة لســان أم ســهيل التــي تولــت المهمـة بجـدارة، و بـدأت الألسـن تلـوك بشـراهة أشياء حدثت وأشياء لم تحدث.

لقـد جحـد النعمــة التــي وهبــه الله إياهـا و تمـرد حتــى كــاد يــرى نفســه آلهــة يجــب أن يعبــد و تُقدم له القرابين.

و بعــد أيــام جــاءت نبيلــة كســيرة الخــاطر ، دامعـة العينـين مثقلـة بالأوجـاع إلـى بيـت العـم أبي حسين تريد مقابلة لميس.

وجلســت مــع أبــي حســين ريثمــا تــأتي لمـيس، فبادرها أبو حسين فجأة بقوله:

- لـم تبكـين يـا أم أحمـد ؟ هـل ولـدك صــالح و يستحق دموعك؟

- إنّه ولدي و فلذة كبدي .

و أجهشت ببكاء مر و تابعت:

- مهما طغى الأبناء و تجبروا و عاثوا فساداً لا نستطيع نحن الأمهات أن نراهم إلا بعيون القلب يا أخي أبو حسين.

تأثر أبو حسين بالغ الأثر و قال لها مهدئاً من روعها:

- اصبري يا أختاه فالضربة التي لا تُميت تكون درساً لا يُنسى ، و ابنك ورد قد بالغ في قسوته و ظلمه و اشتدّ جوره و من الطبيعي أن ينال عقابه .

و هنا خرجت لميس من غرفتها متأثرة بمظهر نبيلة التي لا ينقطع بكاءها عانقتها و قالت:

- لا تبكِ يا خالتي إنها مشيئة الله.

فبادرتها نبيلة قائلة وسط دموعها:

- أرجوك يا لميس أعرف أنني أطلب منك أن تفعلي خيراً مع إنسان لا يستحق إلا الصفع ،و لكن أنا أم فارأفي بقلب أم يكتوي قولي للسيد مناف أن يفعل شيئاً قبل أن يتدمّر مستقبل ورد فهو سيموت حتماً إن بقي في غياهب السجون.

ارتسمت على وجه لميس ابتسامة حزن

و قالت :

- سأفعل ما بوسعي لا تجزعي يا خالتي.

* * *

كانت رائحة الجدران تفوح بعفونة قوية تثير في النفس الغثيان حيث جثم ورد مع عدد كبير من المساجين.

لم يتخيل أنه في يوم من الأيام سيؤول مصيره إلى معاشرة هذه الفئة الموبوءة من

النـــاس، فقـــد حُشـــر مـــع الســـارقين و قطّـــاع الطرق في مكان واحد.

كـــان يشـــعر بالاختنـــاق ، و يشـــدّ ياقـــة ســـترته بعنف ليتمتم بحنق يكاد يجعله يبكي كطفل:

"اللعنة على هذه الحياة".

و يعـود ليسـترجع أيامـاً مضـت و يسـائل نفسـه "كيـف أُحـرم مـن ذاك النعـيم و التـرف فـي لحظـات و قـد كنـت الآمـر النـاهي ! كيـف أُرمى مع هؤلاء المجرمين ! "

فيهـبّ واقفـاً يصـرّ علـى أسـنانه كأسـدٍ مفتـرس علـى أهبـة الهجـوم ، و لكـن علـى مـن يريـد الهجـوم ؟ علـى القـدر الـذي عـاود التكشـير مجـدداً ؟ أم علـى ذلـك العنصـر الـذي أودى بـه إلى السجن ! أم على نفسه !

و لا يلبـــث أن يســـتكين و يعـــاود تمتماتـــه و لعناته على الحياة.

لم يلتفت لأحد من السجناء الذين كانوا مغلّفين بالبؤس ، فهم يثيرون قرفه و اشمئزازه ، لا يريد الاعتراف ضمنياً بأنه يتساوى معهم في التواجد في مكان واحد، فإن ناموا يبقى يقظاً ، و إن استيقظوا يغفو متوسداً ساعديه ، حتى الطعام أبى مشاركتهم إياه حتى خار جوعاً لكنه لم يستسلم لوجع معدته، و كان السؤال الذي يدور في خلده و لا يجد له جواباً " من سيسعى لإخراجه من هذا القبر؟ و هل ستعمل خطيبته هناء على ذلك؟ و يعزّي نفسه بالقول " نعم إنها ستفعل فهي تحبه كثيراً و لن تتركه هنا لمدة طويلة" و ما إن يصل بتفكيره إلى هذا الحد حتى يتنفس بقليل من الارتياح الذي لا يدوم طويلاً حتى تحتله الظنون و الهواجس السوداء.

أربعة أيام لا أحد يسأل عنه، و هو محشور في قبر، و بينما هو غارق ببحر همومه تتآكله الآلام و الأفكار شعرً بيد أحدهم تنكزه من الخلف، فالتفت بسرعة ليرى أحد المساجين الذين يشمئز منهم وراءه مبتسماً.

رمقــه ورد بنظــرةٍ تنشــرُ حمــم الغضــب ، و أشاح بوجهه عنه فبادره الرجل بالقول:

- ستموت إن لم تأكل ، خذ هذا الرغيف قبل أن تفارق الحياة.

لم يجبه ورد بل ابتعد عنه كي لا يسمع منه المزيد من الكلام ، لكن الرجل عاود نكزه مرة أخرى ، فالتفت ورد صارخاً في وجهه:

- اللعنة عليك لا أريد رغيفك ، اغربْ عن وجهي مَن أنت حتى تتجرأ و تكلمني ؟

فأمسك الرجل بكم سترته مهدداً و قد تبدلت ملامحه إلى غضب عارم و قال:

- أنا مثلك سجين ، قد أكون مخطئاً و عوقبت و أنت أيضاً كذلك فلا فرق بيننا أيها الغلام المغرور، و لتذهب إلى الجحيم فلن أهتمَ إذا رأيتُ لسانك يتدلى من فمك جوعاً ككلبٍ مسعور.

انصـرف الرجـل يقـف فـي ركـن بعيـد عنـه و يدخن سيجارة بهدوء.

كـان ورد علـى شـفير المـوت جوعـاً، يشـتهي سيجارة قد تكون لديه أهم من الطعام.

كـتمَ دمعـه و حبسـه بـين جفنيـه فقـد تبخّـرت آمالـه كلهـا بزيـارة أحـد لـه، فهـو لـم يعـد يأمـل بأن أحداً سيخرجه من تلك الورطة.

اقتعـدَ أرضَ السـجن و وضـع رأسـه بـين يديـه المتكئتـين علـى ركبتيـه و وهـو يشـعر بالاحتضـار، فقـدَ المقاومـة و طفحـت أوانـي أحزانه.

و فـي صـبيحة اليـوم الخـامس انهـارت مقاومتـه فأخـذ يفـتش بعينيـه القـريحتين عـن ذلـك الرجـل الـذي تشـاكس معـه ، فوجـده فـي نفـس الـركن يغـطُّ فـي النـومِ فـاغراً فمـه لينبعـثَ مـن تجاويفـه شخيرٌ قوي هادر .

اقتـرب منـه و جلـس القرفصـاء بجانبـه ، لـم يحـاول إيقاظـه فقد كـان لايـزال لديـه نتفـاً واهيـةً من كبرياءٍ زائفٍ.

طـال نـوم الرجـل فضـاق ورد ذرعـاً مـن انتظـاره و أخـذ يتـأفف بصـوت مسـموع، و يبحـث بعينيـه حـول الرجـل المسـتلقي ليجـد علبـة التبـغ كـي يسـرق منهـا سـيجارة ، فبـاء بحثه بالفشل .

دام صـراعه مـع نتـفِ كبريائـه المتبقيـة نصـف سـاعة لكنهـا رويـداً رويـداً تلاشـت تلـك النتـف الواهيـة ، و ربـت علـى كتفـه باسـتعطاف فأجفله.

نظـر الرجـل إليـه بعينـين حمـراوين سـاهيتين، و هزّ رأسه بإيماءة استفهامٍ فهمس ورد له:

- أرجوك أعطني سيجارة.

مـدَّ الرجـل يـده إلـى جيـب سـرواله دون أن يتفـوه بكلمـة و أخـرج لـه علبـة التبـغ و أعطـاه

سيجارة و عاد إلى غفوته دون أن ينتظر شكراً من ورد.

و بعد مضي ساعة عاد ورد إليه بعد ان لمحه مستيقظاً و طلب منه رغيفاً من الخبز فأعطاه الرجل نصف رغيف دون أن ينظر إليه أو يكلمه.

* * *

غمرَ الفرحُ ميرفت و قد اتصلَ بها مناف يطلب منها مرافقته إلى أحد القرى لزيارة منزلِ أحد المصابين في الحرب.

لبست على الفور و تزينت أكثر من المعتاد.

اتصلت بلميس لترافقها لكن لميس اعتذرت لأنها مصابة بصداعٍ قوي.

فاستقلت سيارتها و انطلقت إلى شارع ميسلون حيث كان مناف منتظراً مجيئها برفقة شاب و فتاة من أصدقائهما في حملة التطوع.

انطلقوا إلى القرية بعد أن اشتروا الفواكه و بعض الحاجيات لأسرة الشاب المصاب.

و حين وصولهم كانت صدمتهم كبيرة حيث وقفوا أمام بيت مكوّن من غرفتين ، مبني بأحجار غير مطلية بالإسمنت، و قد تداعى ركن منه بفعل تراكم السنين عليه.

طرقوا الباب الخشبي الذي تملأوه الشقوق التي يسكنها عدد لا يُحصى من الصراصير.

لقد كان بيتٌ أشبهَ بطللِ منزلٍ بُنيَ من مئات السنين، و راعهم مارد الفقر المتربص على أسرة الشاب الذي بترت ساقه و لم يُكمل الخامسة و العشرين من عمره.

استقبلتهم الأم بكثير من الترحاب ، و قد كساها الخجل من تلفِ الكراسي ، فقد اقتصر فرش الغرفة على ست كراسٍ لا تخلو واحدة منهم من العطب أو التشقق، و طاولة استبدلت قوائمها عدة مرات، و سرير في صدر الغرفة ليستلقي عليه الشاب المصاب.

لقد كان الابن الأكبر لتلك المرأة الارملة التي حملت على عاتقها إطعام أربع أفواه ، و العناية بولدها الذي أقعدته الحرب.

اقترب مناف من الشاب معانقاً له، و قد أدمعت عيناه رأفةً على شبابه.

فنظر الشاب إلى مناف و قال له بابتسامة جذابة:

- أرجوك لا تبكِ، لقد أسفتُ لأنني لم أستطع أن أقدّم لهذا الوطن الغالي إلا ساقي ، إنّ الروح رخيصةٌ في سبيل افتداء وطننا لكن الله شاء ألّا أقدمها، و أحمدُ الله لأنني وهبتُ شيئاً و لو كان زهيداً فداء لأرضنا الغالية.

لم يستطع مناف ضبط نفسه ، فانحنى فجأة و قبّل الساق المبتورة منفجراً ببكاء مرير، فهرعت ميرفت و الأصدقاء إليه ليمسكوا به همست ميرفت له:

- مناف لا تبكِ أمامه هكذا يجب أن نعطيه القوة المعنوية لا أن نُضعفه.

جفف مناف عينيه بمنديلٍ أعطته إياه ميرفت و تبسم للشاب قائلاً:

- سامحني يا أخي لم أبكِ إلا لأنني شعرتُ بصغري و تفاهتي أمام جبروتك.

في طريق العودة ظلّ مناف محكوماً بالصمت و الحزن.

و أخذ يحدث نفسه :

" هؤلاء الناس لا يملكون شيئاً من المال و رغد العيش و بالرغم من ذلك لا يتوانوا عن تقديم أرواحهم بكل شجاعة أما نحن الذين نمتلك الثروات و الأموال و الأطيان ليس بمقدورنا التضحية حتى بحفنة نقود يا للعار ! ".

ذهب مناف بعد أن وصلوا إلى المحافظة إلى مكتب أبيه مباشرة، و دخل عليه و قد كان يتحدث في الهاتف مع واحد من أمثاله حول صفقة كبيرة، و بعد انتهاء مكالمته نظر إلى مناف الممتلئ حزناً و قال بصوته الأجش:

- ماذا تريد؟ لمَ جئت؟

- أبـي أريـد منـك أن تـتكلم مـع أحـد معارفـك مـن أجـل تقـديم المسـاعدة للشـبان الـذين أُصـيبوا فـي الحرب لقد.....

قاطعه الأب منتفضاً:

- منـاف مـا بـك ؟ هنـاك جهـات مختصـة معنيّـة بهذه الأمور.

- لا يـا أبـي هنـاك مَـن بُتـرت أوصـالهم و يقبعـون تحـت أثقـال الفقـر المخيـف لا يجـدون العناية الكافية.

- و ما شأني أنا؟

- شـأنك أنـك فـي مركـز مرمـوق تسـتطيع أن تقـدم طلبـاً برعايـة هـؤلاء الـذين ضـحوا بأجسـادهم منتحبـين بـاكين و نـادمين لأن الفرصـة لـم تُـتح لهـم لمـنح أرواحهـم فـي هـذه الحرب.

شأنك أنك غني و الفقراء أمانة في رقبة كل ذي أموال طائلة.

- اخرسْ.. فأنا غني بمجهودي و عقلي و لست جمعية خيرية ، هناك من هو مسؤول عن شؤون المصابين و الشهداء.

إن الحكومة تُعنى بهم و لا شأن لي بهذه الامور.

وقف مناف و قد تصاعدت الدماء إلى وجهه و خرج صافعاً باب المكتب وراءه بغضب.

بينما أبو العلاء يتمتم بازدراء:

- ما الذي أصاب هذا الأبله؟ لقد فقد عقله نهائياً.

لقد قام مناف بمساعدة أصدقائه بنشر أوضاع المصابين و احوالهم و تصوير معاناتهم و تجرعهم لمرارة الآلام المرافقة لعجزهم عن مواصلة حياة طبيعية كباقي البشر على

أغلب المواقع الإلكترونية مطالبين الحكومة متابعة أمورهم و توفير العناية اللازمة لهم.

لكن زيارة مناف لذلك الشاب حفرت في أعماقه ألماً لا يُنسى فاندفع إلى بيع سيارته الفخمة.

اتصل بلميس و ميرفت و طلب منهما أن يرافقاه إلى قرية الشاب.

وصلت الفتاتان إلى الحديقة فشاهدتا مناف يتأبط حقيبة سوداء و هو غارق في التفكير.

قالت له لميس:

- ما بك يا مناف أقلقت خاطرنا ما الأمر؟

قال لها و قد زرع ابتسامة خفيفة على وجهه:

- أردت أن نذهب معاً إلى بيت الشاب المصاب لأنني لم أعد امتلك سيارة ، فلنذهب بسيارة ميرفت.

فوجئـــت الفتاتـــان و نظرتـــا إلـــى بعضـــهما باستغراب فقالت ميرفت:

- أين سيارتك هل حصل مكروه؟

- لا لقد بعتها لأرمم منزل ذلك الشاب و أفتح لـــه دكانـــاً صـــغيراً يعتـــاش منـــه مـــع عائلتـــه بالإضافة للراتب الذي تزوده به الدولة، و قد دعوتكما لنذهب معاً إلى هناك.

لقد اتفقت مع العمال لموافاتنا إلى هناك هيا بنا.

قالت له ميرفت فجأة:

- و هل سيرضى والدك عن هذا؟

قال لها بحزن:

- بالطبع لا لن يرضى إذا بعت سيارتي من أجل مساعدة فقير ، لكنه سيكون مسروراً عندما أقول له أنني تعرضت لحادث خطير و تهشمت سيارتي فهو سيركض في اليوم

نفسه و يشتري لي أفخم منها ، و هذا ما سأفعله.

قالت لميس و قد استنكرت الكلام:

- هل سيصدق أنك تعرضت لحادث و أنت سليم معافى؟

ضحك مناف بصوت عالٍ:

- إنه لا يكترث ليعرف الحقيقة ، فقد عشنا عمرنا كله بالكذب و النفاق ، لا تشغلا بالكما سأتولى الأمر.

سارت لميس و ميرفت خلفه تلفهما الدهشة و لم تعترضاه بحرف.

الفصل الحادي عشر

(رسالة لم تصل)

و تظلّ تبيع أحلامك لرذاذ المطر الرتيب

لأرصفةٍ متصدعة من أقدام الزمن

و جزمات الدهور

و الدمع في عينيك يتدفق معلناً حرباً

ضارية على بقايا سعادتك..

أسبوعٌ يتأهب للأفول و يطلُّ أسبوع آخر و الحال لم يتغير، و قد أيقن ورد أنه لا

سبيل للنجاة و كأن نهاية العالم آذنت حقاً في ذلك اليوم.

لقد تكحلّت أيامه بلون واحد من الكآبة التي لا عهد له بها.

لم يعد قادراً إخفاء دموعه أكثر، فانزوى يبكي حاله و لم يقطع سبيل دموعه إلا صوت الرجل الأجش:

- ما هو جرمك يا بني؟

لم يلتفت ورد فقد عرف أنه نفس الرجل الذي يطعمه و يعطيه السجائر ، إنه العم صالح الذي يفرض محبته على الجميع بطيبته اللامحدودة.

تململ متثاقلاً و تمتم :

" اللعنة على هذه الحياة" و بدأ يلهث إعياءً.

قال له العم صالح بصوت خافت:

- لا يا بني لا تلعن الحياة لأنك مُعذب فيها،

فكم جمرة داستها قدماك و أنت تبصرها و لا تحيد عنها ؟

عذابك أنت من سطرته بقلمك و ليست الحياة إلا دار إقامة لا تُقدّم لك خيراً أو شراً فإن بصق الدهرُ عليكَ يوماً لأنك قد تكون حفرت في أعماقه جروحاً دون أن تدري.

و هنا توقف نحيب ورد و حملق في الرجل كأنه يراه لأول مرة، فقد انتابه شعور أنه إزاء رجل حكيم فقال له متسائلاً:

- إن كنت بهذا الخلق الرفيع و رجاحة العقل فلم أنت هنا بين هؤلاء المجرمين ؟

ابتسم الرجل بحزنٍ بالغ و قال له:

- يا بني لا تحكم على أحد بهذه السرعة ، ليس كل من تراهم بمجرمين، لأنَّ المحاكم الدنيوية تعاقب على الأفعال فحسب ، و لا تعاقب على النوايا ، فكم من منحرفٍ ينوي

الفحشاء ضمناً و إحلال المحارم و لا تتاح له الفرصة لذلك فتجده حراً طليقاً ! و كم من بريء النفس طاهر السريرة ينصبون له المكائد ليلصقوا به تهمةً أو جرماً وهو قليل الحيلة فيبيتُ أسير القضبان.

يا بني لو وُجدتْ في الحياة محاكمٌ للضمير و النوايا لنفدتْ كل حبال الكون لصنع المشانق.

قال ورد و عيناه تبرقان أسى:

- معك حق يا عم صالح و لكن نحن مسيرون لا مخيرون في هذه الحياة أليس في هذا ظلم بحق البشر؟

- لا يا بني ليس صحيحاً ما تقول، فأنت مسيّر بوجودك في الدنيا لكنك مخيّر بين فعل الخير و الشر، مسيّر باختيارهم لاسمك و أمك و أبيك .. جمالك الجسدي و قبحك و في أن تكون أميراً او ابن فقير ، لكنك مخيّر بين الصدق و النفاق بين العلم و الجهل، بين الرفعة و الوضاعة بين التعقل و الطيش و المحبة و البغضاء.

لا تلعن الحياة فهي لون واحد لكن نفوسنا هي من يصبغها باللون الذي تريد، و إن الحياة لن تعطيك شيئاً إلا الذي تستحق أن يكون لديك.

- لكن يا عم صالح لكي يعيش المرء يجب أن يفعل كل شيء، فليس للطيب مكانٌ في غابة الأشرار.

- بني لا ترتجي أن تحصدَ بيادر قمحٍ من حبةٍ واحدة زرعتها فهي لن تعطيك إلا سنبلة، و بذرة تفاح لن تعود عليك إلا بشجرة واحدة فلا تُحمّلْ عبء غبائك على كاهل الحياة و عبء جهلك على الحظ و إن كنت يجب أن تفعل شيئاً فليكن زرع الحب في كل مكان لكي تحصد بيادر محبة ازرعْ الخير ليكون محصولك خيراً.

كانت كلمات العم صالح كالريح التي تصفع قمم الأشجار فتأخذ الأغصان بأسرها تعول عويلاً.

و سرح بفكره بعيداً جداً ليرى في عين خياله أباه و قد خطّه الشيب و أحنى العمل ظهره، و كيف استهان بوفاته و جعل من العم أبي حسين سخرية في بيته ، و تأجج حنينه لأمه التي تحملت قساوة طبعه بصبر لا ينفد .

كانت مراجلٌ تغلي في قلبه ، و جمرات تكوي روحه عندما يتذكر كم ظلم حبيبته لميس فهو لم يعطِ لحبهما فرصة ليقف بعد أن تعثر قليلاً و همس بألم شديد:

" رباه كيف أضعتُ طريقي و تهتُ في مسيري ! "

استكان إلى الصمت متداركاً أنفاسه ، و غاص في أفكاره لتتراءى له لميس مجدداً بين زحام ذكرياته فيزداد غمه و همه.

التفت إلى العم صالح الذي كان بدوره شارداً و قال:

- عمي أنا مخطئ و لستُ هنا لأنني مظلوم، فقد حاقَ بي العقاب الذي أستحقه.

- و لـم يـا ولـدي اعتنقـت سـبل الخطيئـة و أنـت تدرك عواقبها ؟.

- قـد يكـون الخـوف إنـه أشـدّ فتكـاً بالإنسـان مـن أكثـر الحيوانـات افتراسـاً ، الخـوف مـن الفقـر مـن الماضـي جعلنـي جشـعاً و نهمـاً أغـرف المـال غرفـاً كـي لا أعـود لأيـامٍ كنـا فيهـا نتضـور فقـراً و الإنسـان عنـدما يصـل إلـى مرحلـة يـدرك عظمـة أخطائـه و يغـرق فـي أعمـاق الخطايـا يتمـادى أكثـر لأنـه يفقـد السـبل التـي توديـه إلـى الصـواب و يتـابع مـا بـدأه بعـد فقدان السيطرة.

أنـا لسـتُ شـريراً يـا عمـاه إننـي فقـط أحـب أن أعـيش كبشـريّ لا كقـط بـريّ أجـرب يقضـي عمره على الأبواب مشتهياً.

- بنـي لا يوجـد إنسـان شـرير بـالفطرة ، إنّ المحـن و المصـائب التـي تمـرّ علـى حيـاة المـرء يجـب أن تجعلـه أشـدّ تبصـراً للصـواب ، و تقشـع عمـى القلـوب قبـل أن تتخـبط الـنفس فـي الظلام.

و أتمنى أن يكون السجن بما فيه من اعتقال للحرية و جوع و عفن درساً لك فأنت في ريعان العمر ولا زال لديك متسع لترمم أركان ما انهار من قيمٍ في نفسك.

* * *

لم تهنأ لميس لحظةً واحدةً و ورد أسير القضبان ، و لم تعرف لذة النوم و هي تفكر كيف لها إنقاذ ورد و إخراجه من السجن.

كان مناف يلاحظ ذبول عينيها ، و كآبة قلبها، و لم تخفِ عنه سبب ذلك بل أطلعته بالسبب.

- مناف أعلم أنه من الصعب عليك تحمّل كل هذه الأعباء و لكن في قلبي لهيب لا يخمد أرجوك حاول أن تجد له مخرجاً.

تأملهـا منـاف و قـد غـزاه الحـزن لحزنهـا و قال:

- سـأعمل جاهـداً لإخراجـه مـن السـجن لسـببين أولهمـا مـن أجلـك انـتِ ، و الثـاني لأكفّـر عـن ذنبـي فـي إهانـة والـده ، ذلـك الـذنب الـذي يعتصـر ضـميري كلمـا تـذكرتُ تصـرفي الأرعن و الطائش.

غداً بإذن الله سأكلم والدي.

صـمت منـاف و تجهـم ، و قـال للمـيس بشـيء من الحياء:

- و أنـا يـا لمـيس أريـد منـك المسـاعدة فـي أمـرٍ يقضي مضجعي.

و كـأن فـي القلـب مـرآة تعكـسُ مشـاعرنا و أحاسيسـنا فكـان قلـب ميرفـت مـرآةً رأى بهـا منـاف حبـاً يناشـده و شـوقاً يناديـه، لقـد احتلـتْ أسـوار وجدانـه فغـدت صـورتها لا تبـارح خيالـه ، و خطـر لـه أن يصـارح لمـيس بحبـه لميرفت..

كانت لميس تنتظر أن يتكلم و بعد أن طال صمته قالت:

- ما بك يا مناف قلْ ما عندك ، متى كنا نخفي الأسرار عن بعضنا؟

بدا مضطرباً و مرتبكاً لكنه تجرأ و قال:

- أنا .. أنا أحب ميرفت و أظن بأنها هي تبادلني نفس الشعور لكنني لا أجرؤ مصارحتها بهذا الحب، و أريد منك أن تخبريها بذلك.

ابتسمت لميس بارتياح و قالت:

- لقد تأكدتُ الآن بأن الله استجاب لي ، و وهبك شيئاً من العقل.

و تعالت ضحكتها فأعقبت:

- سأعمل جاهدة لأوفق بينكما ، لا تقلق سأذهب إليها الآن و سأخبرك مساءً بما جرى.

و على الفور ذهبت لميس إلى بيت الأستاذ فضيل لترى ميرفت التي طارتْ فرحاً بزيارتها الغير متوقعة ، و بعد أن اختلت الفتاتان ببعضهما قالت لميس:

- لن أبقى طويلاً، لكنني أريد اطلاعك على أمر يتعلق بمناف.

وجفتْ ميرفت و انتابها الرعب ، فأنصتت بقلقٍ بادٍ على مُحيّاها.

تابعت لميس:

- ميرفت إن منافاً لم يعد شاباً عابثاً كما رأيتِ فقد سلك كل سبل الخير و الفضيلة ، و لم يبقَ في سلوكه ما هو شائن أو غامض.

همستْ ميرفت:

- نعم أعلم ذلك إنه شاب رائع

- ميرفت إنّ منافاً يحبك و هو الذي طلب مني أن أخبركِ بذلك.

انفرجت أسارير ميرفت و قالت:

- ماذا تقولين ؟ لميس هل أنت جادة ؟

ضحكت لميس و قالت و هي تغمز بعينها:

- نعم يا ميرفت إنه ينتظر مني ردّاً على أحر من الجمر فما قولك؟

ترددت ميرفت قليلاً، و لكنها تابعت بعد تمعن:

- أنا موافقة و أشعر تجاهه بالحب ، لكن هل يوافق أبي ؟ إنه يعرف منافاً و كان شاهداً على قصته مع العم سلامة.

- معك حق يا ميرفت و أنا فكرت بهذا الأمر لكن هنا يأتي دورك فقبل أن تعرضي الموضوع على أبيكِ يجب أن تعطي انطباعاً جيداً عن أخلاق مناف و كيف طرأ عليه التغيير و التكفير عن أخطائه فهو بالتأكيد لن يتقبله مبدئياً، لكن عندما يتأكد أنه أصبح شاباً

صـالحاً محبـاً للفقـراء سـوف يغيّـر نظرتـه و يتقبله.

ارتاحـت ميرفـت لكـلام لمـيس و طلبـت منهـا أن تُخبر منافاً بما جرى.

فـي المسـاء طلـب منـاف مـن والـده ان يسـعى فـي إخـراج ورد مـن السـجن، لكـن أبـا العـلاء استشاط غضباً و ثارت ثائرته على ولده.

لـم يقنـط منـاف بـل ظـلَّ يتوسـل إليـه و يعـده بأنـه لن يطلب منه أي طلب آخر.

و أمـــام تضـــرعات ولـــده اتصـــل بأحـــد المسـؤولين الـذي أبـدى اسـتعداده ليلبـي طلـب أبـي العـلاء لكنـه اعتـذر منـه فهـو لـن يسـتطيع إعـادة ورد إلـى وظيفتـه فقـد صـدر قـراراً بطرده من الشرطة.

بعـد مـرور يـومين بينمـا ورد منشـغل بالحـديث مـع رفيـق السـجن العـم صـالح جـاء عسـكري ليبلـغ ورد مراجعـة مكتـب الضـابط المسـؤول

عـن السـجن، و بعـد أن مثـل أمامـه نظـر إليـه الضابط بعدم اكتراث و قال له:

- بإمكانـك أن تخـرج يـا ورد لقـد جاءنـا أمـر بإخلاء سبيلك.

أشـرق الأمـل فـي صـدر ورد و كـأن أحـداً انتشله من بين صفائح القبر.

أخـذت الكلمـات تتبعثـر علـى شـفتيه و تتلعـثم، شكره و ركـض إلـى السـجن ليـودّع العـم صـالح و يعـده بأنـه سـيزوره و يعمـل جهـده أن يوكـل له أحد أصدقائه المحاميين ليخرجه.

بعد إطـلاق سراحه ظـنّ بـأن خطيبتـه هنـاء هـي التـي اسـتماتت لتخرجـه ، و كـان يتخيـل أنهـا سـتكون فـي انتظـاره لـدى عودتـه إلـى البيـت لكنه لم يجدها فقد خاب ظنه.

كانـت فرحـة نبيلـة عارمـة حضـنته بشـدة و أخـذتْ تحمـد الله الـذي اسـتجاب لتضـرعاتها و صلاتها.

و بعـد أن اسـتحمَّ ورد و أكـل بـنهم بعـد جـوعٍ طويل ، التفتَ إلى أمه متسائلاً:

- أين هناء يا أمي كنت أظنها ستأتي.

تنهدت الأم عميقاً و قالت:

- لم نرها منذ دخولك السجن يا بني.

فوجئ بكلامها و قال:

- من الذي أخرجني إذاً من السجن؟

قالت نبيلة و بحة البكاء تلازم صوتها:

- إنهـا لمـيس فبـالرغم مـن إهانتـك لهـا و لأبيهـا لـم تتـوانى أن تكـون قـارب النجـاة لـك مـن الغرق يا ورد.

صُـعق ورد ، و جمـدت عينـاه مـن الصـدمة و همس:

- غير معقول !

و فـي المسـاء قـرر أن يتصـل بهنـاء ليعـرف سبب إعراضها عنه ، فردت ببرود:

- نعم ماذا تريد؟

- لم تتكلمين بهذه الطريقة يا هناء أنا خطيبك

قهقهت بصوتٍ عالٍ و أجابت بسخرية:

- ألا زلـتَ تـذكر؟ إنـسَ مـا كـان بيننـا فأنـا و عائلتي لا يناسبنا شخص منحرف مثلك.

و أغلقت الهاتف في وجهه.

كـتم غضـبه و جلـس يفكـر كـم هـي سـطحية و منافقة أهذه هي من استبدلتُ لميس بها !

شـيء مضـحك أن يسـتبدلَ المـرء الـذهب و الألماس بحفنةٍ من روث الحيوانات.

صرخ بصوت غاضب:

- " تفــوه عليــك يــا ورد" و ضــرب بقبضــته الطاولة التي أمامه.

جاءتْ نبيلة راكضة لترى ما به و قالت:

- هل أنت بخير يا حبيبي؟

- أنا بخير يا أمي لا تقلقي.

- ورد إن خالتــك أم ســهيل و ابنتهــا جاءتــا للاطمئنان عليك.

وهنــا حملــق ورد خائفــاً كطفــلٍ صــغير وقــال باستجداء:

- أمــي ... أمــي أنــا ســأفعل كــل مــا تريدينــه ، ســأكرث عمــري لخدمــة النــاس ، لحــب البشــرية سأتنســك إن شــئتِ يــا أمــي لكــن أرجــوك لا تدعيني أرى أم سهيل أرجوك .

غرقت نبيلة في الضحك و قالت له:

- كما تريد سأقول لها بأنك نائم.

و بعد فترة وجيزة و قد تأكد من ذهاب أم سهيل و ابنتها خرج ليستقل سيارته و يتجه إلى اللاذقية قاصداً البحر فلا شيء يواسي عذابات نفسه إلا تنهدات الأمواج.

* * *

أسرفت ميرفت بذكرِ مناقب مناف أمام والديها، و أخذتْ تتطرقُ لأدقّ التفاصيل التي يقوم بها من أعمال خيرية و مساعدات، و اندفاعه لكل مبادرة.

كان والدها يختلس النظرات إليها، و يراقبها من وراء كتاب يقرأه.

إنه يستطيع قراءة أفكارها دون أن تتكلم حرفاً واحداً ، فهي كتابٌ مفتوح بالنسبة للأستاذ فضيل.

فتعلقه الروحي بها كان يدعمُ حدسه القوي لأفكارها، إن التعلق الشديد بالأشخاص يجعل بينهم ترابطاً روحياً حتى نكاد نقرأ كل

مـا بـداخلهم مـن أفكـار دون الحاجـة لترجمتهـا على الألسن.

و بدون سابق إنذار فاجأها بقوله:

- أنت تحبين منافاً يا ميرفت؟

أحسّـت بأوصـالها ترتجـف مـن المفاجـأة التـي نزلـت عليهـا و لـم تتوقعهـا و أصـابها الـذهول لدرجـة الإغمـاء ، فأخـذت تتـنفس بسـرعة كبيـرة كأنهـا انتهـت لتوهـا مـن سـباق للجـري السريع و قالت بصوت مرتعش:

- أحبـه ؟ أنـا ؟ لمـاذا تقـول هـذا يـا أبـي؟ هـل معنـى أن نـتكلم عـن شـخص بشـكل جيـد و إيجابي أننا نحبه ؟

اتسعتْ ضحكة والدها و قال:

- لا لا يعنـي أبـداً ذلـك ، و لكـن فـي الأغلـب عنـدما نتحـدث عـن شـخص بعيوننـا ، و شـفاهنا و حركـات أيـدينا و ابتسـاماتنا يكـون شخصـاً استثنائياً أليس كذلك يا حبيبتي ؟

أطرقت ميرفت رأسها خجلاً ، و أقرّتْ بأن كلامه صحيح فهي لم تنتبه بأنّ حبه كان يشعُّ من عينيها و ذكر اسمه يجعل شفتيها ترتجف فقالت:

- لكن يا أبي أنا أعني أنني... ..

فقاطعها والدها:

- حبيبتي أنت حرة باختيارك لأي شاب ، فالحب ليس جريمة لنداريه، إن كنت تحبينه هو أم غيره فهذا حقك ، و أنا لا أتدخل باختياراتك لكن أتمنى أن أراه ، قد يكون للآباء أحياناً نظرة صائبة بالأشخاص أكثر من الأبناء لأن رأينا يكون متجرد عن أي عواطف و بموضوعية أكثر .

- بالطبع يا أبي فأنت صاحب الرأي الأهم في أي شخص سأرتبط به مستقبلاً، و لن أتخذ أي قرار قبل أن تعطيني بركتك وموافقتك..

غمرها الفرح الكبير، و زالت كل مخاوفها التي قضت ليالي و هي تستأسرها.

بعد أن أخبرت لميس منافاً بموافقة ميرفت تضاعفت سعادته إنه لا يرجو من الدنيا إلا إنسانة فاضلة تُنير دروبه و تمنعه عن الخطيئة ، إنها كلميس الفتاة التي تعبق رائحة الشرف من ثنايا روحها.

كان العاشقان يقضيان معظم أوقاتهما سوياً، إما في العمل أو في الحديقة يتناجيان الحب و الغرام.

و كل يوم يزداد حبهما و تعلقهما ببعضهما.

و في أحد الأيام دعت ميرفت منافاً لزيارة والديها ، فاعتلته الفرحة العارمة و أبدى سروره.

لكن هواجساً غامضة أخذت تعصف بروحه، لم يكن يجد لها أي تفسير ، و بدأ باستقصاء تلك الهواجس ليرى من أين جاءت و كيف

تخللت أعماقه لكنه لم يجد ثغرة واحدة ، كان شعوراً مبهماً جدا.

* * *

قرر ورد أن يبيع سيارته و يفتح بثمنها محلاً لبيع الأجهزة الكهربائية بعد أن خسر مركزه و وظيفته ، فهو لن يمتهن المحاماة مرة أخرى سيغلق نوافذ الماضي ، و ينسى أنه كان محامياً و ضابطاً في الشرطة ، إنه سيكتفي بما يجود عليه المحل و يبقى قريباً من منزله.

لقد كانت ضربته القاسية بمثابة تحول جذري لأفكاره و أمنياته، و تذكر كلام العم صالح بشكر المحن و الامتنان لها لأنها تعلمنا ما لم تستطع الحياة بألف عام تعليمنا إياه.

إنه خسر كل شيء، و أهم خسارة له هي حب لميس له، إنه مقتنع بأنها لن تثق به مرة أخرى.

لكنــه الآن يعــيش علــى أمــلٍ واهٍ بــأن تجمــع الحيـاة بينهمـا ثانيـة، فأمطـار الحـزن لـم تجـف عن سفوح قلبه.

لقـد سـمع بأنــه تـم تعيـين لمـيس فـي المدرسـة المجـاورة كمدرّسـة للفلسـفة، فهـو سـيراها فـي إيابهـا و ذهابهـا، إن تفكيـره بأنـه مـات مـن قلبهـا إلــى الأبـد و لا سـبيل لاعـتلاء عـروش حبهـا يجعلــه يشـعر بثقـلٍ فـي أنفاسـه، فيهـبُّ واقفـاً كـالمجنون، يتـذرع بـأي حجـة و يـذهب إلــى شاطئ البحر.

كـان كـل يـومٍ و بعـد منتصـف الليـل يتصـل بهـا مــن رقمــه الجديــد و مــا إن يســمع صــوتها الـدافئ حتـى يُغلـق الخـط، و ينـام مرتاحـاً بعـض الشـيء، فقـد اكتفـى بصـوتها بعـد أن كانـت كلهـا ملكاً له.

و لــم يُخـفَ عـن لمـيس أنــه ورد، فقـد كانــت تعـرف أنفاسـه جيـداً، و تعـرف بأنـه لا أحـد إلا ورد سيتصل بها في هذا الوقت.

*   *   *

وصل مناف إلى بيت الأستاذ فضيل وقدماه لا تقويان على حمله، فقد كان وجلاً لسبب لم يدركه.

استقبلته المدام فريال بكل احترام ، أما ميرفت فقد كانت في أبهى حلّة لقد اختارت أجمل فساتينها و تبرجت بغير تكلف.

كان يترقب حضور الوالد بفكر مشغول، و عيون حائرة و أقنع نفسه كثيراً بالهدوء و الاطمئنان لكن دون جدوى.

دخل الأستاذ فضيل بابتسامة خفيفة و ألقى تحية معتدلة، لكن ما إن وقعت عينا مناف عليه حتى استولى عليه الرعب إنه هو نفس الشخص الذي تعارك معه في ذلك اليوم المشؤوم ، و هو الشاهد على ما اقترفه من خطيئة حيال الرجل البائس ، لقد عرف الآن الشعور المخيف و الهواجس التي سكنته و لم تكن واضحة لديه.

أخذ فضيل يمتحنه بنظراته ، إنه يبدو مختلفاً كثيراً عن ذلك اليوم باختيار ملابسه و

بتسريحة شعره المرتبة ، و حتى بالحياء الذي لم يلحظ له أثراً ذلك اليوم.

و بعد أن تجاذبوا الأحاديث المختلفة، سأله فضيل :

- ألا تذكرني يا مناف؟

تسارعت ضربات قلبه و أجاب باستحياء:

- نعم يا عمي لقد تذكرتك، و إنني لشديد الأسف و الندم لما ألحقته بذلك الرجل ، أنا يا عمي ذقت طعم الألم ووخز الضمير بما يكفي و أرجو أن تسامحني أنت أيضاً.

نظر إليه فضيل شزراً و وقف مقترباً من مناف الذي وقف بدوره ، و ما إن صار قبالته حتى بصق فضيل بوجهه و قال له:

- لا تمسحها حتى تجفّ لوحدها أفهمت؟

هنا صرخت ميرفت بذعر:

- أبي ماذا تفعل؟

جمد مناف مكانه دون حراك و قد أوشك أن يبكي لكن دمعه تحجر في مقلتيه.

لم يلتفت فضيل لابنته و زوجته اللتين صعقتا من هذا الموقف.

قال لمناف بلهجة صارمة:

- هذه البصقة قد قتلت إنسانا ، فهي جرح لم يُشفى إلا بموته قهراً ، و أعترفُ بأن الله أراد لك أن تُكفّر عن ذلك الذنب لذلك رددت لك الإهانة.

قال مناف و قد اختلطت كلماته ببحة البكاء:

- الله عاقبني على فعلتي و خطأي الفادح لا أنكر هذا، و أنت يا عمي أخطأت خطأ فادحاً و أهنتني في عقر دارك فكيف لك أن تُكفّر عن ذنبك ؟ أنا يا عمي كنت مأسوراً بقوقعة الثمالة فالخمر كان يعميني لكن أنت من النضج بما يكفي ، فهل يجوز أن تدفع

الشر بالشر و تفعل ما فعلت أنا؟. ليس عدلاً أن يعطي الإنسان لنفسه دور القاضي على ذنوب الآخرين.

و همَّ مناف و قد غمره الحزن بالانصراف برغم بكاء ميرفت و قهرها ، لكن الأستاذ فضيل أوقفه صارخاً:

- انتظر و من قال لكَ أنني لن أُكفّر عن ذنبي؟.

و أمسك بيد مناف يجرّه إلى الداخل ليغسل له وجهه بيديه وسط ذهول ميرفت و والدتها، و بعد أن عادا دعاه للجلوس فجلس واجماً كئيباً.

فقالَ له فضيل:

- الآن انت تستحق أن تكون ولدي ، و لأكفّر عن ذنبي فأنا أبارك حبكما أنت و ميرفت، لقد أردتُ أن أجعلك تشعر كم كان حجم الجرح الذي زرعته بصدر ذلك المسكين

حتى لا تعود يوماً و تتصرف بعنجهية مع أحد، فأنا لا أُصاهر إلا رجلاً بمعنى الكلمة.

قال مناف و قد تبدد تجهمه بعض الشيء لكن ملامح الحزن لازمته:

- نعم لقد شعرتُ بعمق الجرح و كلّي أمل بأن الله سيغفر لي ، و أعدك أن أكون لك الولد الذي لم تنجبه ، و أصون ميرفت مدى الحياة.

قال فضيل بلهجة قاسية:

- لكن عندي شرط وحيد.

أطرق مناف أرضاً ليتفادى النظر إلى ميرفت و قال بحزن بالغ:

- أنا موافق مسبقاً على كل شروطك ما عدا أن تجرح كرامتي مجدداً.

تابع فضيل :

- لا يا بني لن أجرح كرامتك فمنذ هذه اللحظة أصبحت كرامتك هي كرامتي و قد اعتبرتك ولدي ، أنا أعلم أنك ابن شخص مهم و أنت رئيس قسم في إحدى شركات والدك و هذا شأنك لكن أريد أن تقبل السكن هنا في بيتنا إن قررتما الزواج انت و ميرفت، فكما ترى البيت واسع جداً و أنا لا أملك في هذه الدنيا إلا ميرفت، و كما وعدتني منذ قليل بأنك ستكون الولد الذي لم أنجبه فما قولك؟

صمتَ مناف متفكراً بكلام الأستاذ فضيل، فهو على حق ، كيف له أن يسكنها مع أهله و هم أناس غير جديرين بها ! وهو لا يريد أن تعاشر والدته و يجبرها على أجواء لا تُليق بها لكن في نفس الوقت رأى في هذا الطلب ما يلطخ رجولته.

فقال بعد الوقت و قد بدا مهموماً:

- أنا موافق يا عمي سنسكن هنا.

عمَّ الارتياح على فضيل بعض الشيء ، لكن ما حدث زرع غصة في قلب ميرفت فقد كان الموت أهون عليها من ذلك الموقف الذي وضعها فيه والدها.

كانت تتحاشى النظر إليه و الحديث معه و تلتزم الجلوس في غرفتها أغلب الأوقات حتى ضاق والدها ذرعاً فدخل ليكلمها:

- ميرفت هل أنت منزعجة من والدك؟

لم تجب ميرفت و اكتفت بالإطراق أرضاً.

تابع والدها:

- لم يكن بمقدوري أن أغفر له و أعطيه أغلى ما عندي و في قلبي حقد عليه يتراكم و يتعاظم، فكيف سأخفي حنقي منه، لقد فعلت ذلك حتى تتصافى القلوب و تزول شوائب البغضاء من قلبي تجاهه.

قالت ميرفت بصرامة:

- أبـي أنـا لا أريـد أن أسـكن هنـا إن تزوجـت منافا.

اتسعت عيناه دهشةً و قال:

- كيـف لا تريـدين ؟ أنـا سـأموت إن سـكنت فـي بيت أبي العلاء إنهم....

قاطعته ميرفت بحزم أكثر:

- و لـن نسـكن هنـاك أيضـاً سـأطلب مـن منـاف شـراء منـزلاً خاصـاً لنـا ، أنـا لـن أجبـر منافـاً أن يتنـازل عـن هيبتـه لأنـه يحبنـي، فهـو سيشـعر بـنقصٍ فـي رجولتـه و بجـرح فـي كرامتـه إن فرضـت عليـه هـذا، أرجـوك يـا أبـي سـامحني فقد حمّلنا مناف فوق طاقته .

و انفجـرت بالبكـاء و تابعـت وسـط دموعهـا الحارة:

- لقـد جعلتـه ذلـيلاً أمامنـا يمـوت قهـراً ليتـك ذبحتني يا أبي و لم تفعل ذلك.

و غطّت محيّاها بكلتا يديها تجهش بالبكاء.

وقف فضيل حائراً لا يعرف كيف يهدئ من روعها، لقد عجز فخرج من الغرفة يتمزق حزناً لبكائها.

تمت خطوبة مناف و ميرفت بعد شهرين كان اكثر شيء جعل منافاً ينسى إهانة فضيل له هو إنقاذ ميرفت له من الرضوخ لطلب أبيها الجائر فهو يريد الاستقلال مع زوجته في بيت واحد لا يشاركهما فيه أحد.

كانت سعادة لميس بخطوبتهما لا تقدر بثمن إنها استطاعت تغيير مناف و جعله إنساناً قويماً متمرداً على فسوق عائلته ، وجمعت بينه و بين ميرفت التي تحبها حباً جماً تحت مظلّة الحب و الهيام.

و لم تنس في ليلة الخطوبة عندما باركت لمناف و صافحته قوله لها أمام الجميع:

" لميس يا منارة الخير و شعاع الإنسانية جريمتك الوحيدة في هذه الحياة أنك إنسانة"

و قبّلها على جبينها ، و قد تدحرجت دمعاته على وجهها.

* * *

فيما ورد منشغل بترتيب أغراضه الخاصة و رمي ما هو قديم و تالف وقع نظره على مغلف مغلق.

فتحه بيد مرتجفة فكانت الرسالة التي كتبها لحبيبته لميس في أول نبضة قلب دوتْ بين قضبان صدره، كانت في أيامٍ اكتفى بضوء وجهها عن وضوح النهار و بسواد شعرها عن كل سكون الليالي ، و ارتحلَ على صهوة خياله إلى تلك الأيام التي خبأت في طياتها سعادته ، أيام لا يمكن تعويضها بدهور مديدة و همس :

" كم كنت سعيداً بحبها و كم انا شقي الآن !"

قبّل الرسالة التي لم تصل و أعادها إلى المغلف و خبأها من جديد.

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل فتاق إلى صوتها الدافئ و تعطّش إلى تردد أنفاسها.

رن هاتف لميس كالمعتاد في منتصف الليل فأجابت:

- ألو .. ألو مَنْ؟

لم تجبها إلّا الأنفاس المحمومة و التشهق ببكاء مر ، فقالتْ بصوتٍ يخترقُ شغاف القلب، و يضخّ لهيباً من حنينٍ لا ينطفئ:

- لا تبكِ يا ورد فأنا لن أعود إليك..

و لكن كنْ على يقين بأنّك لو وطأتَ تراب قبري لولولتْ صفائحي حباً و شوقاً إليك، و إنْ عبسَ الكون بأسره في وجهكَ ستمتشقُ روحي كل حجارة الدنيا و ترشقه بها، و إنْ عضّتكَ أنياب القدرِ ستكون أطيافي ضماداً لجراحك..

سـامحني يـا ورد فأنـا لـن لأكـون لـك ولا لأي رجلٍ أبدَ الدهر...

و أغلقت الهاتف و نامتْ و لم تغفُ...

بكى قلبها و لم تذرفْ عينيها.

و لا يـزال المبضـعُ فـي الجـروح منغـرزاً يزيـد من نزفها الذي لا ينضب.

انتهت